أحزانُ اليوْمِ الواحِدْ

مُحمد علي الشّوَيهدي

أحزانُ اليوْم الواحِد

قصص قصيرة

مؤسسة
الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

أحزانُ اليومِ الواحِد

محمد علي الشويهدي

A DAY'S MOURNING

BY

MOHAMED ALI ESHOWEIHDI

مؤسسة الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

LONDON - BEIRUT

Email: arabdiffusion@cyberia.net.lb

P.o. box: 113/5752 - Beirut - Lebanon

ISBN: 1 84117 012 7

First Edition 1973

Second Edition 1978

Third Edition 1982

Fourth Edition 1999

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or
by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

الطبعة الرابعة 1999

الإهداء

إليها..

حبيبتي بنغازي

بقدر ما أحببتها

وبقدر ما عذّبتني

فأحببتها.. أكثر.. وأكثر.. وأكثر..

«محمّد»

بعض من تصورنا

بعض من تصورنا

طرق الباب ثلاث طرقات متوالية، فانتفضت مفزعة لتفتح باب حجرتها الموصد وتسترق السمع لتتبيّن القادم، وإن أنبأتها الطرقات الثلاث عمن يكون؛ إنه ابن عمّها سالم دون شكّ، أتى لزيارتها وليبارك صيامهم، وليقضي بعض الوقت معهم، ولتتلصص عيناه في حذر فتلتقي بعينيها لقاءً قصيراً جدّاً، لكنه مفعم بحب ما بعده حب.

إنه سالم، لأنه اتفق معها على أن يطرق الباب ثلاث مرّات متوالية حين يقدم لزيارتهم، فتستعد هي بالتالي لمقابلته وتحيّته بطريقة عفوية، أجادت أداءها بفعل زيارات سالم العديدة لمنزلهم بأعذار معقولة أحياناً ومضحكة في أغلب الأحيان.

وارتدّت لتوصد الباب وتدير المفتاح في حذرٍ خيفة مِن أن يفطن أحد لتلصصها، واستندت على الباب تدير في رأسها الصغير آلاف الأفكار والخواطر، وداهمتها فكرة أن لا يكون سالم هو القادم، فالتفتت مذعورة لتفتح الباب من جديد وتتلصص، غير

أنّها ما لبثت أن أزاحت هذه الفكرة من رأسها، لأن القادم لا بدّ أن يكون «سالم»، فلا أحد يعرف بأمر الطرقات الثلاث سواه.

إنه سالم، حلمها الجميل الذي عاشت تحلم به منذ شهور تكاد تقارب السنة، فتخاله زوجها الطيّب الودود، تعيش معه تحت سقف واحد، يُرقدها في عينيه الزرقاوين، ويغطيها بجفونه المسبلة الطويلة، فتنام العمر كلّه دون أن تحرّك ساكناً غير لسانها، تديره في حلقها فلا يلفظ سوى اسمه.. سالم..

وتحركت خطوة إِلى الأمام، وواجهت مرآة «خزانة» ملابسها، فابتسمت لشبابها الصارخ الفاتن، وامتدّت يدها تحيد خصلات شعرها الأسود الطويل الذي غطّى وجهها عندما انتفضت لتتبيّن القادم، فاتضحت تقاطيع دقيقة معبّرة لوجه صغير جميل، وعاودتها ابتسامتها التي لم تكد تختفي.

إنه لا شكّ مرتبك في حديث متكلّف سخيف مع أمّها، عن الصيام ومتاعبه، وعن الجو وبرودته، وعن خالته التي تناصب أمه العداء دون مبرّر، بينما تتلصص عيناه عبر السقيفة في انتظارها، إنها تسحره، تجعله يكتب لها الكثير من الرسائل في ولهٍ، ويرتجف ويتصبّب عرقاً كلما لاقته، بل إنه كاد أن يغمى عليه ذات مرّة عندما ابتسمت له في غفلة من الجميع في السقيفة، وهمست له في بحّة خائفة متردّدة:

ـ أحبّك . . أحبّك يا سالم .

وتذكّرت رأي أهلها وكل أقاربها في سالم، فكادت تقهقه لأنّهم يرونه شاباً مؤدّباً مستقيماً، يكاد لفرط أدبه أن يستحي من ظلّه، بل لعلّه قد فعل ذلك ذات مرّة، ولكن سالم مؤدّب ومستقيم بالفعل، فهو بشهادة أمّه وجيرانه، لا يعرف السهر خارج البيت أبداً، ولم يحدث أن جاوز التاسعة مساءً خارج البيت، وسالم ليس له رفاق سوء على الإطلاق كما هو الحال مع من في سنِّه، ولم يقل عنه أحد أنه احتسى في حياته ولو جرعة صغيرة من الخمر.

إنه نعمَ الزوج، ونعمَ الرفيق لحياة طويلة مليئة بالحب والبهجة وكل ما هو جميل، وشعرت بدفقة عارمة من عاطفة بكر بريئة تعمّ كل كيانها، وهمست بصوت يكاد يكون مسموعاً:

ـ أحبّك . . أحبّك يا سالم .

وأحست بأنها تظلم سالماً وتعذّبه بتأنّيها المقصود كلما جاء لزيارتهم، فلا تصله وتلتقي به وتحييه، إلاَّ وسالم في آخر رمق يكاد يفقد الأمل من لقائها الذي تجشم عادة في سبيله الكثير، لكن دلالها هذا يزيد شعلة الحب المتوهجة في داخل سالم اتّقاداً، ويجعله يتلهّف أكثر على رؤيتها وردّ تحيتها بأفضل منها بكثير، غير أنّه يلومها في خطاباته على تأنّيها هذا كثيراً، ويرجوها أن تلاقيه بمجرّد أن تتخطّى قدماه عتبة بيتهم، حتى لو التجأت إلى

حيلة نسائية صغيرة لا تكتشف. إِلاَّ أنه دون شك يجد لها العذر في تأخّرها هذا، فلو علمت الأم بسرّها لأبلغت أخاها الذي لا شكّ قاتلها في الحال.. وعلى سالم أن يصبر قليلاً كما صبر كثيراً.

ونزعت عن جسدها فستان النوم، وبدأت تتخيّر فستاناً محتشماً أنيقاً لتلقى سالماً به، وتذكرت أن سالماً يحب اللون الأزرق الفاتح، فامتدّت يدها إِلى فستان بذلك اللون، وارتدته، وخافت أن تنبهها أمّها ـ بعد ذهاب سالم ـ إِلى أن الفستان الذي ترتديه مخصّص للخروج لا للبس في المنزل، وخشيت أن يكون في هذه الملحوظة مدعاة شكّ فمراقبة، تنتهي باكتشاف سرّها الذي لا يعلمه سوى الله.

وارتعشت أصابعها بينما كانت تفك الفستان لتخلعه وتعيده إِلى مكانه في «خزانة الملابس»، كان عليها أن تضحي وتحتمل، وعلى سالم أن يفعل الشيء ذاته في سبيل أن يظل حبّهما سرّاً لا تظلّله سحابة شكّ، فالمواجهة المدعمة بفهم العجائز للعاطفة البريئة التي تربطها بسالم، وما يتبع كل ذلك من تطورات قد تؤدي إِلى قتلها إن لم تضطرّها إِلى الانتحار هرباً من سوء المعاملة التي سيتفق الجميع على مضايقتها ومعاقبتها بها.. إنها أمور يجب أن توضع في الحسبان.

سيتزوجها سالم ذات يوم، وسترتدي من أجله أزهى ما يحبه من الألوان، وستحبه صراحة وأمام الجميع دون أن ينبس أحد بكلمة في حقّها، ستفعل كل هذا ذات يوم، عندما يصير سالم زوجها الودود الطيّب.

وتحرّكت إِلى كرسي في أحد أركان الغرفة، لتلتقط أصابعها ـ على كرهٍ ـ فستانها الذي كانت ترتديه طيلة يومها المنتهي، وارتدته في لا مبالاة، وكأنها تلوم نفسها وظروفها التي تأبى أن تمكّنها من استقبال سالم بفستان ترتاح له عيناه.

عادت إِلى سابق وقفتها تشد الفستان من ناحية ليرتفع قليلاً من ناحية أخرى، بينما امتدت يدها تعمل بمشط خشبي كبير في شعرها الأسود الطويل، وانتهت من زينتها البسيطة، وداهمها شوق عنيف إِلى سالم، وراودتها رغبة في أن تقابله مرتدية فستانها لا غير، إِلاَّ أن نشوة الرغبة لم تدم، إذ تلاشت بفعل خاطرة خاطفة تذكِّرها بما ستقابل به من نظرات غضبى تترجم إِلى توبيخ بمجرد أن ينصرف سالم، ولفّت الرِّداء حول جسدها على عجل، وخطت إِلى باب حجرتها الموصد تفتحه وتسترق السمع لعلّها تسمع صوته، لكنّها لم تستطع أن تطيل أمد وقفتها، ورأت أن تسير إِلى حيث هو، فلقد تأنّت أكثر مما يجب، ولا شكّ أن سالماً يكاد يفقد الأمل في لقائها، بل لعلّه قد فعل، وتذكّرت أن أمّها تناديها

لتحيته كلما تأخّرت، وتنبهت إِلى أن أمّها لم تفعل بعد، فرأت ان تنتظر بعض الوقت حتى تتيقظ أمّها فتناديها، وحينها ستندفع إِلى لقائه بكل حبّها وشوقها، وقد أعفت الشكوك والتأويلات من تدخّلها الكريه.

وطال بها الانتظار، ومرّت دقائق ثقيلة بطيئة سخيفة، تلد كل ثانية شكّاً يمزّقها في غير ما هوادة ولا رحمة، إذ ربما تكون أمّها نادتها لتحية سالم ولكنها لم تسمع نداءها، فباب حجرتها كان مغلقاً دون العالم كله إِلاَّ عن خيال سالم وكلماته الحلوة وابتسامته العذبة.

وأحسّت أنها تعطي الكثير في سبيل رؤيته ولا تبخل في عطائها أبداً، وأنّه ليس وحده الذي يعاني من ذلك الخليط الفظيع من أحاسيس تجربة عاطفية كاملة، ورأت أن تتحرّك في اتجاه السقيفة، وفي حركة عفوية تدخل «المربوعة» وكأنّها لا تعلم بوجود أحد كما كانت تفعل أحياناً، وشرعت في تنفيذ خطّتها، فما أن دخلت السقيفة حتى فوجئت بباب «المربوعة» موصداً، ودقّ قلبها دقّات سريعة تكاد تسمع لو أُرهف السمع، أو هكذا خيّل لها، وصعدت الدماء إِلى وجهها حارة فتوردت وجنتاها، وأحسّت بكل شعرة في رأسها وكأنّها تنبت من جديد، وتراجعت يائسة، لأنّه لا يمكنها أن تطرق الباب وتدخل، وإِلاَّ لكانت فعلتها

وخيمة العواقب، واصطدمت أثناء تراجعها بجسد عجوز مترهل، والتفتت مذعورة، وفوجئت بأمّها تقف من خلفها، وبدا لها لوهلة أن أمّها اكتشفت سرّها، وتلاحق في مخيلتها ما يعقب ذلك من متاعب، فتداركت على عجل تسائل أمّها وكأنها تستغرب أن يكون في «المربوعة» أحد، بينما كانت تشير بسبابة مرتعشة إِلى حيث تكاد تسمع أنفاسه:

ـ من هناك؟!

ـ لا أحد.

ـ لقد سمعت الباب يطرق منذ دقائق.. خفت أن يكون..

وقاطعتها أمّها..

ـ حقّاً.. كان الطارق ابن جارتنا صالحة.. جاء ليستعير قصعتنا..

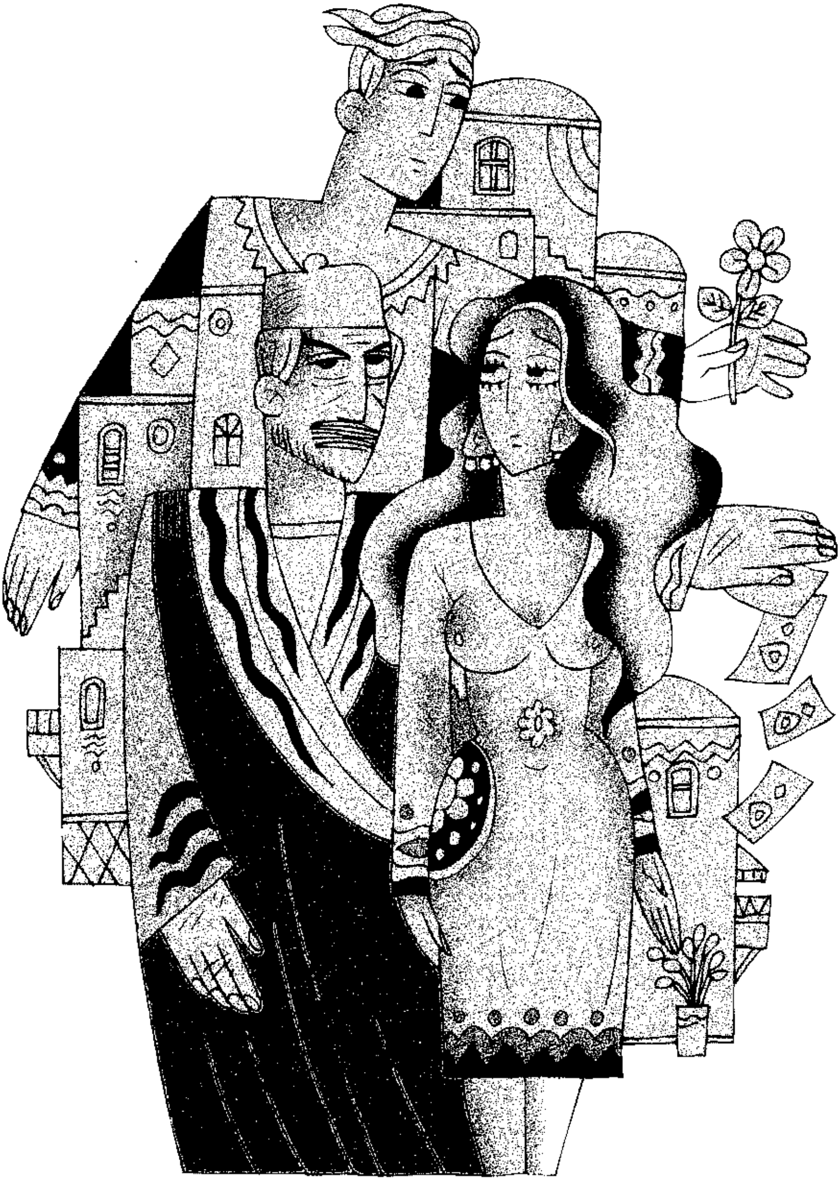

رحلة الأحلام

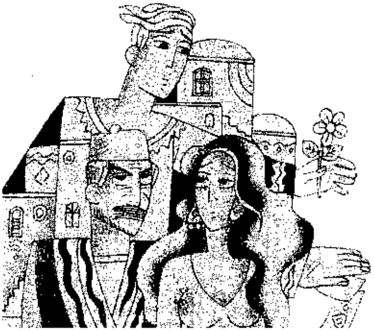

فتحت عينيها في تثاقل لذيذ، ثم فركتهما بسبابتها لتلتقي من جديد بالوجوه الصغيرة المصفوفة على السرير الكبير في طرف الغرفة، وأحسّت بنشوة تغمرها وبسعادة خفية تدغدغ أعماقها، وحوّلت الغطاء عن جسدها الفاره، ونزلت عن السرير ووقفت في وسط الغرفة وتمطّت وكأنها تدفع بآخر آثار النوم عنها، وخطت إِلى الأمام خطوتين، وبدت على صفحة المرآة صورة رائعة لتحفة أبدع الرب صنعها، عينان سوداوان حالمتان، شعر أسود طويل متهدّل على الكتفين والنهدين في فوضى جميلة، شفتان قرمزيتان تحتضنان في وداعة ثغراً صغيراً جميلاً، وجنتان متورّدتان تكادان أن تنفجرا، قوام متناسق أخّاذ. . و. . وأحسّت بالرضى عن نفسها والتفتت إِلى الخلف وقد ازدان محياها بابتسامة تفيض ثقة واعتزازاً، والتقت عيناها بالوجوه البريئة المصفوفة على السرير، وانقبض قلبها فجأة، عندما ومضت في رأسها فكرة أنها ستفارق

إخوتها الصغار الذين لا يلوذون بسواها في محنهم الصغيرة، ولا يلجأون إِلى غيرها في قضاء حوائجهم، سرى في كيانها شوق عارم إليهم، واعترتها رغبة ملحّة في أن تقبِّل شفاههم الصغيرة، وتحركت في اتجاه سريرهم وانحنت على أصغرهم تقبّله، فلامست خصلات شعرها وجهه وفتح عينيه وابتسم ثم عاد إِلى رحلة الأحلام الطفولية الرائعة، ورأت أن تدع الصغار نياماً وأن لا تأتي بأية حركة ربما توقظ الرقود، فالساعة لم تتجاوز السادسة صباحاً بعد، بدء اليوم الجديد لم يحن موعده في بيتهم. وتحركت تجاه سريرها لتضطجع قليلاً، ولكنها كرهت أن تنام بعد أن استيقظت فجلست على الحصير مرتفقة حافة السرير.

أيام العرس لن تكون ثلاثة أيام قصيرة، لياليه لن تكون ثلاث ليال فقط، حياتنا كلها ستكون عرساً لا ينتهي، ولم لا تكون؟!.. لم لا تكون وقد تحققت الأحلام التي كنا ننسجها على قصاصات الورق في ليالي السهاد المؤرقة؟!.. فمن كان يظن أنّه يمكن أن يتمَّ بيننا لقاء؟ من كان يعتقد أنني سأكون امرأته وسيكون رجُلي؟.. رجُلي ورفيق حياتي وزاد رحلتي الطويلة، وتخيّلته واقفاً على بعد خطوة منها ببسمته الصغيرة وملامحه الرجولية الجادة ونظراته المتشوقة الحانية، وكادت أن تسمع أنفاسه تتردد منتظمة عميقة..

ـ ألم أقل لك أن أباك رجل طيب، وأنه لن يرفض بل سيرحب بي أبلغ ترحيب، وسيعتبرني ابناً وأخاً منحته السماء بعد طول جدب؟. . لقد قلت ذلك لأنه لم يدع ساعة تفوت دون أن يمجدني حتى يخجلني، ولم يحدث أن مررت به إِلاَّ وسبقني إِلى إلقاء التحية وأمطرني بأسئلته عن حالي وأحوالي. .

وأحبّت أباها كما لم تحبّه من قبل، رأته يحقّق مستحيلاً بموافقته على زواجها من سعيد، وتمنت لو يزيل ذلك الحجاب اللعين ويفتح لها صدره لتحدثه عن سعيد، فيحبه أكثر ويعتبره ابناً حقيقياً يحقّ له أن يفاخر به الناس.

وبدت نصف نائمة وقد أراحت خدّها على راحة يدها المرتفقة على حافة السرير، وأحسّت بأنّها وسط جمع هائل من النساء والأطفال، ضحكات رنانة سعيدة وكلمات كثيرة تأتي من كل الأنحاء فتختلط لتضيع دقات الطبلة ونغم الزمّارة والتصفيق والصوت الملعلع:

ـ عرس فطومة يا جيران. .

وانتفضت مفزوعة ورفعت عينيها فتبينت أمّها واقفة تحدّق فيها متسائلة:

ـ فاطمة. . ماذا هناك؟

ووقفت بعد أن عاودتها الطمأنينة التي قذف بها الفزع بعيداً، وابتسمت في حياء:

ـ أبداً.. لا شيء.. صحوت مبكرة وفضّلت أن لا أنام فجلست إِلى جانب السرير.. ولكن يبدو أنّني نمت.

وتبعت أمّها إِلى المطبخ، ولكنها توقفت في وسط الحوش فجأة عندما جاءها صوت أبيها من الغرفة المجاورة:

ـ قميص نظيف.. قميص..

ورجعت إِلى غرفتها تتصبّب خجلاً، وأحسّت بأن انتزاعها من بين الوجوه التي أحبتها قد بدأ بالفعل، ومسحت بطرف فستانها دمعة يتيمة تدحرجت على خدّها، وأسندت ظهرها إِلى باب غرفتها الموصد وتنفّست بعمق وكأنّها جنّبت نفسها عواقب حادثة كادت تقع، فما كان يجب أن تخرج إِلى وسط الحوش وأبوها ما يزال موجوداً في البيت، الأمور لم تعد هي الأمور، كل شيء تغيّر، والحياء أبسط الحقوق التي يجب أن يفي بها الأبناء للآباء في مناسبات كهذه، فلا يجدر بالبنت أن تقابل أباها حين يأزف موعد عرسها.

وتنبّهت إِلى أن موعد عرسها لم يحن بعد، ولكن الرجال سيحضرون عند المغرب للاتفاق مع أبيها على الشروط.

ووخزتها كلمة «الشروط» لما تتضمنه من معان تجرد عاطفتها من شفافيتها وروحانيتها وارتفاعها عن الماديات، لكنها ما لبثت أن عزّت نفسها بأنّها ليست سوى شكليات تفرضها تقاليد متوارثة، ثم إنها لا تتعدّى كونها اتفاق ممثلي الطرفين على مراسم الزواج ومتطلباته، وعرفت أنّها تخادع نفسها، فأغمضت عينيها وكأنّها تحاول أن تهرب من أفكارها الملحّة القاسية..

ليحدث ما يحدث.. فسعيد يحبّها.. وأبوها يفضّله على جميع شباب الحي، بل إنه اعتبر رغبته في الزواج منها تحية تقدير خصّه بها سعيد دون الجميع..

ودفع الباب من ورائها فجأة فاندفعت إِلى وسط الغرفة في خطوات سريعة حتى كادت تقع، والتفتت مذعورة فالتقت عيناها بوجه أمّها الثائر المتحفّز:

ـ ماذا أصابك يا فاطمة؟.. لم لا تتحركين فتناولين أباك قميصه؟! ألم تسمعيه؟!

وأطرقت بعينيها إلى الأرض، وكست وجهها حمرة مفاجئة، وأحسّت بدمائها حارة تلهب بشرتها، وخرجت الكلمات من أعماقها متعثّرة خجلى:

ـ أرجوك يا أمي.. أنت تعرفين أن اليوم.. اليوم..

وضاعت الكلمات ورفعت رأسها إِلى أمها ثم أسبلت جفنيها في حياء، وفهمت أمّها ما تعنيه، فانفرجت أساريرها عن ابتسامة عريضة وهمست لها بكلمات مرحة:

ـ ولم كل هذا الخجل؟.. إنه أبوك.. ولكن رتبي حجرتك واستعدّي للحاق بي في المطبخ.. بمجرد ذهاب أبيك..

واستدارت الأم في خطوات مرحة متجهة إِلى وسط الحوش، وأسرعت فاطمة إِلى باب غرفتها، توصده وتدير المفتاح في قفله منعاً للمفاجآت، وأعادت ترتيب فراشها، فالفراش الكبير الذي يخصّ إخوتها الثلاثة الذين يشاركونها الغرفة، واطمأنت إِلى أن كل شيء مرتب في موضعه، ورأت أن تسرِّح شعرها فالتقطت المشط من فوق سطح «خزانة الملابس» وشرعت تمشطه وخيالها الذي خدرته الأحلام يتابع مراسم ليلة الحناء.

ـ فاطمة.

وانتفضت، والتفتت إِلى نافذتها المطلّة على الشارع، وتحركت في خطوات مرتعشة حتى بلغت النافذة وأزاحت الستارة قليلاً، وظهر سعيد من خلف الزجاج مرتبكاً، واغتصب ابتسامة دفع بها إليها وأخرج من جيب معطفه قصاصة امتدت بها يده إليها، وأدارت الأكرة، ورنّ صوت أبيها في أرجاء المنزل:

ـ سأعود بعد ساعة.

وسمعت وقع أقدامه في طريقه إِلى الباب فأشاحت بيدها لسعيد أن اذهب، وأسدلت الستارة بعد أن أقفلت النافذة، واستندت إِلى الجدار مغمضة العينين وقد أسلمت أمرها إِلى الله.

فتح الباب ثم أغلق وساد الصمت للحظة بدت طويلة مشحونة بالقلق والتوتر، وجاءها صوت أبيها من الشارع مرحاً مرحباً:

ـ صباح الخير يا سعيد.

وصوت سعيد وقد غلبه الارتباك والتأثّر:

ـ صباح الخير.. صباح الخير يا سيدي الحاج..

وساد الصمت من جديد، وانتظرت قليلاً إِلاَّ أن شيئاً لم يحدث.

❖ ❖ ❖

ورحلت آخر الخيوط الذهبية إِلى بقعة أخرى في العالم لتصنع حياة جديدة في يوم جديد، وانتهى بغروب الشمس انتظارها الذي عبر السويعات الفاصلة بين صباح يومها ومسائه في ألف يوم، واختفت في غرفتها من عيون الأم والعمّة والخالة والجارات، وعلت في الشارع قهقهات وأصوات تتبادل النكات والتشنيعات، ووقع أقدام يتخلّله وقع عكاكيز، ودخل الرجال إِلى «المربوعة» تسبقهم ضحكاتهم وسط كلمات الترحيب، ومضت فترة قصيرة

انخفضت خلالها الأصوات، وخف الهرج والمرج والضجيج ليعم بعدها صمت تتخلّله بعض الكلمات التي لا تعني شيئاً.

ـ لا.. لا.. يا حاج..

ـ لا يا سيدي الموضوع بسيط..

ـ مجيئنا له ثمنه.

وأحست بظلم ثقيل لا يحتمل، وتمنّت أن تجد في نفسها من القوّة ما يجعلها تفتح باب غرفتها المظلمة وتندفع إِلى حيث يتهامسون لتقذف برأيها في وجوههم، وتعرف رأيهم ووجهات نظرهم وما استقرّوا عليه، وعزّت نفسها بأنّها ستعرف كل شيء بعد دقائق، وبأن أباها لا شكّ يعتز بمصاهرة سعيد وأنه لن يقصّر في حقّه أبداً، وإذا حاد عما يجب فلا شكّ أن الرجال سيقنعونه بالصواب..

وارتعشت لفكرة أنّها قصرت في حقّ سعيد، وتمنت لو أنّها صارحت أمّها بحبها لسعيد ورجتها أن تدفع أباها إِلى القبول، وتألمت لعجزها عن أن تفعل شيئاً، لكن أمّها تعرف على كل حال أنها لا ترفض سعيداً، وربما حدثت أباها، ربما..

ورأت أن تغلق رأسها دون هذه الأفكار جميعها، فما سيحدث على وشك الحدوث، وليس عليها إِلاَّ أن تنتظر الدقائق

القليلة الباقية لتعرف، وبدأت تفكّر بطريقة تتخلّص بها من الأفكار المزعجة التي تأبى إلاّ أن تفرض نفسها، ونهضت، وتمشت في وسط الغرفة، لكن حركتها المفتعلة لم تنتزعها من أفكارها وهواجسها.

وظهر في أفق خيالها سعيد بابتسامته الصغيرة الودودة، وجدّيته، وكلماته الرجولية الحانية، وبدا كطوق نجاة في لحظة يأس، فتشبثت بصورته في خيالها تداعبها بكل ما يعتمل في داخلها من حبّ وحنان.

ورفعت طرف الفراش والتقطت أصابعها آخر قصاصة تسلمتها منه، وداست زرّاً فعمّ الغرفة نور أصفر، وفتحت الورقة الصغيرة وسَبَحت عبر سطورها:

«لا بد أن تتفاءلي يا حبيبتي، لا بد أن تنظري إِلى الحياة بعين باسمة طموحة، فالأيّام لا يمكن أن تخفي لنا في طيّاتها مكروهاً لأنّنا أعطيناها من حبّنا ما لم نعطه لغيرها، ولأننا نودّ أن نعيشها حبّاً كبيراً لا يخبو وأحلاماً لذيذة لا تنتهي، فقط، تمسكي بالأمل واعتبري اليأس كلمة لا وجود لها في قاموس علاقتنا الطاهرة».

وتعالت الأصوات من جديد، واختلط وقع الأقدام بوقع العكاكيز، وخرج الرجال إِلى الشارع مشيّعين بكلمات المجاملة وتحيّات المساء، وابتعدت الأصوات، وسمعت صوت الباب يغلق

ووقع قدمَي أبيها عائداً إِلى «المربوعة»، وجاءتها همسات ووشوشات من وسط الحوش، وعرفت أن النساء بدأن يتنفسن حريتهن بعد ذهاب الرجال، وتمنّت أن تعرف ما استقر عليه الرأي، وسيطرت عليها فكرة أن تعرف قبل غيرها، فتحرّكت في اتجاه الباب تفتحه، ولكن سرعان ما كساها الخجل برداء من العرق، وانتبهت إِلى أنّها ما تزال ممسكة بالقصاصة في يدها فعادت تخبئها تحت الفراش، وتمنّت أن تتطوّع عمّتها أو خالتها بإبلاغها، وعادت إِلى الباب تلصق عليه أذنها، إِلاَّ أن الوشوشات والهمسات لم تعطها ما تريد، وكادت أن تفقد صبرها فتفتح الباب وتندفع إِلى وسط الحوش، ولكنها رأت أن تتأنّى لثوان ثم تخرج مدعية قضاء حاجة كأن تشرب مثلاً، وجف ريقها بالفعل، وأحسّت بالعطش يداهمها، ووجدت في عطشها مبرّراً معقولاً يبيح لها أن تخرج دون مأخذ، ولعلع صوت أمّها محتجّاً:

ـ عيب يا حاج. والله ما عندك حقّ.. تختلف معهم من أجل خمسين ديناراً.. خمسون ديناراً يا حاج..

الغصن والشجرة

الغصن والشجرة

تملّكني إحساس بأنني أذوب، أتحلّل، أنتهي، أتلاشى في دنيا واسعة عريضة لا أبدو في قعرها العميق إلاّ كذرة متناهية الصغر، ولا أبدو على سطحها موجوداً ولا في وسطها منظوراً، وأغمضت عيني، وتحسّستُ أصابعي جفوني، وارتحت للصمت الذي يغرقني في صخب من الداخل، ضوضاء، أصوات تختلط فتغتال الكلمات التافهة التي تمضغها الألسنة نصف الواعية. والأصابع المتخشبة الطويلة تدق الطبلة، والوجوه كالحة، والعطور رخيصة تدفع إلى التقيؤ، والكحول يمتزج بسحابات الدخان التي تقذف بها النافذة كلما تحركت الريح المستغرقة في نوم عميق.

راحة يدي تتحسّس وجهي، تزحف إلى عنقي، ترتفع إلى رأسي وتضغط على سطحه بخفّة، الكلمات تصلني مجهدة بعد رحلة سبعة وعشرين عاماً، يتفتح لها رأسي، ينسحب الصخب، تتراجع الضوضاء، تبتعد الكلمات التافهة، أتنفس عطراً رائعاً، تهتز الوجوه

الكالحة، تسكت الطبلة، يبدو وجهه السمح الوقور، ابتسامته الحانية، نظراته التي تعلن في براءة عن اعتزازها بكوني ابنه:

ـ «يا سيدي طلع رجلاً.. لم يحدث أن دفعته إِلى المذاكرة بل إنني كثيراً ما صرفته عنها خوفاً على عينيه من الإعياء.. لا.. أبداً.. كل سنة ينجح.. الأول.. الثاني.. الثالث.. دائماً من الأوائل.. والله لا أدري.. ولكني أريده أن يكون مدرساً يعلّم الصغار، وأنتم تعرفون أن للمدرّس شأناً ومكانة بين الناس»..

فرحتي وزنها الدنيا، بسماتي تجود بها شفتاي، عيناي، وجهي، وكلماتي رقيقة مهذّبة تغذي غرور القعود على الصناديق الخشبية الفارغة أمام الدكاكين، قلبي يتّسع للجميع، يفيض حبّاً طفولياً بريئاً، أيامي تبدو مبهجة جميلة، قدماي لا يكلاَّن من المشي، طاقتي المشحونة بالطموح تتلهف، تشتاق إِلى المشوار حتى النهاية.

الوجه السمح الوقور، الابتسامة الحانية، العينان اللتان تفيضان حبّاً واعتزازاً، الصورة بكاملها تغيب، تنسحب إِلى قاع داخلي، يلاحقها خيالي، يستجديها العودة، ولكنها تغيب، ويقبع اليأس في صميم نفسي، ويثقل عليها حتى أكاد أحس بمركز الثقل في ذاتي، ويعتريني إحساسٌ مدمّر بوحدة تمزّق آلامها كل خلية حية في جسدي، وتقبض يد الخوف على روحي بعنف، وأحسّ بأنّي

أتوقف عن الاتصال بالموجودات، بكل ما يحيطني في واقعي أو خيالي، وتسري النهاية في جسدي المنهك.. وألمس حاجتي إِلى النجدة.. إِلى العودة.

ـ «يبدو أنه نام.. وإنني أكره أن ينام الرجال في حضرتي.. وما دام صغيراً غير قادر على البقاء في مثل هذه القعدات حتى نهايتها فما كان يجب أن يحضر أو أن يشترك وإنني..».

وأحسست بالقهر، والعجز، بالوهن، بالضياع، بكل هذه الأمور التي تحقّر الإنسان وتجعله يبدو صغيراً تافهاً، لا يزن خردلة، وطغت السوائل المحرقة حتى وصلت إلى حنجرتي، وكابدت طعمها القارص، وصنعت ملامح غاضبة، وفتحت عينيّ على اتساعهما وصحت في غضب:

ـ أعطني قدحي.

ـ إحذر.. أمسك الكوب جيداً.. إحذر أن تدلقه.. إذا كان الكوب ساخناً خذ هذه الورقة ولفّه.. وقل لسيدك سعد إن الدور قد فاته وإن هذا الكوب يخصه وحده.

شارعنا الهادىء الجميل، بيوته المتوازية المتشابهة، دكاكينه بأبوابها الخضر وكسادها المستديم، وسيدي سعد يفرح لإحضاري كوب الشاي الساخن وينهض فيأخذه منّي ثم يدعوني لمشاركته في رغيف طازج.

ويدور لساني في حلقي متقصياً أثر الرغيف الطازج، وينكمش عندما يتذوق طعم الكحول القارص العالق بحلقي، وتهتزّ ركبتي في قوة، وأحيد اليد التي تهزّها عني، ويصفعني صوت ناعم داعر:

ـ قم.. قم.. لتأخذ دورك أو تذهب لتنام..

قم للمعلّم وفّه التبجيلا، سأقوم بدوري على أكمل وجه، سأصنع شخصية جديدة قريبة من شخصية الأستاذ عبد المجيد، سأكون جاداً مرحاً، ليناً صعباً، وسيحبني كثيراً، وسأعود إِلى البيت في جماعاتهم الصغيرة، وتحيطني وجوههم وبسماتهم، وستلاحقني نظرات أبي التي تكاد تعلن للدنيا أنّه صنع معلماً يربي الأجيال ويصنع المتعلّمين والكتبة.

افتح عينيّ على اتساعهما، وتغالبني جفناي فتحول بيني وبين الرؤية، وتتصل أذناي بالواقع، وتلتقط الأصوات الصادرة عن الأشياء من حولي، وتزكم أنفي روائح العطور الرخيصة والكحول، وتبدو الوجوه الكالحة من خلف الخطوط الضوئية التي تصنعها عيناي غير واضحة المعالم، وأتبيّن وجه رمضان في صعوبة وتأتيني كلماته الغبية الواهية معلنة عن بطولته:

ـ كنت بالأمس ورفيق لي على شاطىء قاريونس، تصوروا أننا شربنا زجاجة ويسكي كبيرة وعدنا إِلى بيوتنا إِلاّ أن ابن الـ...

أصرَّ على أن نكمل السهرة برفقة زجاجة أخرى.. وكان.

ـ ولكنّك لا تستطيع أن تصنع نفس البطولة كل ليلة، لأنّك لست سوى سائق محدود الدخل في شركة..

واستفزّته كلماتي الجارحة، وتخلّلتني نظراته الغاضبة. توقعت شرّاً، وعزّ علي أن أتراجع وسيطرت على عقلي رغبةً في أن أفرغ ضيقي وتعاستي في شحنة غضب ألهب بها كبرياءه..

ـ لا تغضب.. فأنت بغل ضخم الجثة، وبطنك يتسع لألف برميل من الوقود المسروق من مخازن الشركة.

يا أيام طفولتي لمَ لا تعودين؟؟

وكيف يمكن للمرء أن يفصل بكلمة.. برأي.. بقرار.. بين أيام عاشها وأيام يعيشها.. هو انتزاع مؤلم مبكٍ يدعو إلى نطح أقرب جدار.. إلى عضّ النواجذ.. إلى الحسرة والندم.. إلى الفرار بعيداً عن كلّ شيء.

بيتنا صغير متواضع، تآمرت الشمس والرياح على طلائه فأفقدته لونه، حجراته ضيقة ترى في النوافذ بدعة من عند الشيطان، ولكنه كان مثلجاً في الصيف دافئاً في الشتاء، ولم يكن يغمض لي جفن إلاّ بين جدرانه، وكنت أحبّه كما أحبّ الوجوه الطيّبة التي تزدحم في غرفه الضيقة.

وأحاول أن أصنع صورته في خيالي بعد أن غذّى عقلي فكري بالمواصفات، ولكن خيالي يغلق هذا كله، ويلفني إحساس بالضآلة، بالتفاهة، ويتحرّك في داخلي اعتزازي بنفسي ويتمرّد غروري، وتطفو على سطح السائل القارص فقاقيع تطرقع بأسئلة غاضبة:

ـ من أنت؟.. هل تستطيع أن تحدّد؟ هل تستطيع أن تقول من أنت؟

ـ أنا علي..

ـ علي ولد مَنْ؟

ـ ولد إبراهيم..

ـ وأين تسكن؟

ـ في شارع سيدي عمران رقم 11..

ويقهقه الحاضرون، ويحتضنني أبي بنظراته وأحسّ بأنّني أتيت بما لم يستطع غيري أن يأتي به، وأبتسم، ويقاطع صوت متفائل قهقهة الجماعة:

ـ لن يتوه بعد اليوم، ولو حدث وتاه فسرعان ما سيعود.. أوّل فاعل خير سيحضره إِلى هنا في الحال..

ويقول صوت آخر:

ـ إنّني أكره رفقته ولكنّه يتشبث بي كلما لاقاني، ورغم أن أخلاقه في أوقات صحوه رائعة إلاّ أنه يفقد اتّزانه منذ الكأس الثالث، وكثيراً ما يتفوّه بالعبارات الجارحة في حقّ الآخرين فيقذف بي إِلى أحرج المواقف ليتيه حضرته من جديد.

وأحسست أنني منهك لا أقوى على الحركة، وحاولت أن أرتفق أي شيء دون أن أفتح عيني، وعرفت أنني في دائرة مفرغة من الموجودات، وداهمني إحساس يقيني بالوحدة، وكدت أصرخ فيهم أن التفّوا حولي أيّها الأوغاد، واشتقت إِلى أمي كثيراً، وتمنيت أن أعرف السبيل إليها، وعالج المنطق أفكاري المرتجلة، وركنت إِلى اليأس، وتراءى لي ذلك الغصن المقطوع من الشجرة، الصفرة في أوراقه وعروقه، الشمس تمتص ماء الحياة من داخله كل يوم، والغصن يغزل من خيوط القمر الفضية الزاهية حكايات الحب والحياة كل ليلة، والأيام تمضي في أعقابها الليالي، والحياة إنسان يعطي في سخاء وآخر يأخذ في نهم.

أعجبتني الأفكار التي يزدحم بها رأسي فابتسمت في غرور مضحك وكدت أفتح عيني:

ـ إن أتفه فكرة يمكن أن تدور في رأسي هذا، لا يمكن أن تدور في رأس أي كلب منكم إلاّ بعد ألف عام.

وضجّ القعود بالضحك وعرفت أنّني رجل فكه أجيد النكتة

في الوقت المناسب، وكدت أقول لهم إنّني لا أصنع النكات ولكنني أقذف بالحقائق الجريئة على وجوههم القذرة، وتراجعت رغم رفض نفسي للمجاملات في مثل هذا المقام.

ـ خذه ليستريح حتى يستطيع أن ينهض في الغد مبكراً فيذهب إلى عمله.. خذه ليستريح.

وبالرغم مني نطقت حكمة حفظتها في صغري:

ـ لا راحة في الدنيا.. ولا سلامة من الخلق.. ولا نجاة من الموت..

وودعتني الضحكات والكلمات المؤكّدة على كوني ابن نكتة، وتحيات المساء، ولاح في أفق خيالي وجه المدير المتجهّم أبداً، ونظراته التي كثيراً ما تضطرّني إلى التفكير في الاستغناء عن العمل، وتصلّبت قدماي، وحاولت أن أخلّص نفسي من قبضة الذي يقودني إلى السيارة ولكنني لم أفلح تماماً، ككل مرة أحاول أن أقدم فيها على الاستقالة للخلاص من ذلك الملعون الذي لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب، وقذفت بآهة خارج جوفي والتفت إلى رفيقي:

ـ أمي كانت تصوم رجباً..

كان للحياة طعم آخر، مذاق يختلف، كانت الحياة غير هذه

التي نعيشها، وكانت أمي تصوم كل شهر رجب وشعبان أيضاً، وكان جيراننا يسمّونها صائمة الدهر، وكنت أحبّها كثيراً، وكانت تحنو عليّ ولا تنام قبل أن أعود.

ـ ستأخذني وأباك إِلى مكة في سيارتك، إنني أحسّ يا بني وكأن تلك الأراضي تدعوني إِلى زيارتها، شيء في داخلي يؤكّد أننا سنزورها ثلاثتنا، وسأمسك بيدي هذه شباك قبر النبي وسأقبّل الحجر الأسود... ليت هذا يحدث الآن.. ليته يا ابني.

ـ أنت مخيّر بين أن تتحرّك لتعود إِلى البيت وبين أن أتركك هنا ملقى في الشارع.

وتحركت.

وعاودني اليأس من جديد، لا شيء يستأهل شيئاً، والمشوار حتى نهايته لا يتعدّى كونه خدعة يعلّمها الكبار للصغار حتى يتورّطوا في نفس الخطأ، وتملكني إحساس بأنني أذوب، أتحلّل، أنتهي، أتلاشى في دنيا واسعة عريضة لا أبدو في قعرها العميق إِلاَّ كذرة متناهية الصغر، ولا أبدو على سطحها موجوداً، ولا في وسطها منظوراً.

وأفرغتني الشاحنة الصغيرة عند الباب، وبقبضة لا أكاد أشدّها طرقت الباب، وجاءتني طرقعات القبقاب متلاحقة، وفتح الباب، وطالعتني عيناه الصغيرتان المشبعتان بالنعاس، ومنحني ابتسامة

صغيرة شبه معاتبة، وكاد النوم أن يحني رأسه عندما انتزعته وضممته إلى صدري أقبّله، وعاد صغيري يمنحني ابتسامة من جديد بينما ارتفعت يده لتدغدغ أصابعها الدقيقة أذني، وغاصت كل أفكاري في القاع، وتفتحت نفسي على الدنيا، وسخرت من فلسفاتي التافهة، وشحنتني ابتسامته بطاقة، إنني أكبر وأكبر وأكبر، وإن المشوار يستأهل الجهد ما دام لي في دنياي قلب صغير بريء يخفق بحبّي.

احزان اليوم الواحد

احزان اليوم الواحد

حدوات الخيل تدق الطرق المعبّدة، سائقو عربات (الكارو) يطرقعون السياط في الأجواء، محركات السيارات المنطلقة في جنون تحدث ضجيجاً نصف مقبول، وتحيات الصباح يتبادلها الرجال الذاهبون إلى أعمالهم بأصوات عالية، وباعة (السفنز) والفول ينادون على بضاعتهم بأصوات تكاد تتوسّل المشترين.

الساعة كانت السابعة صباحاً، وبنغازي تتنفّس الصباح في تلذّذ كسول، والحياة تبدو مبهجة داعية للعمل، ووجوه الرجال يكسوها التفاؤل المفتعل الذي يراد به الاستبشار بأحداث سعيدة في يوم جديد.

حليمة في فراشها تغط في نوم عميق، وإخوتها الصغار يتحرّكون في مراقدهم وكأنهم يطردون آخر ما علق بجفونهم من نوم، وباب الغرفة الموصد يدفع بعنف، والحاجّة تندفع إلى وسط الغرفة بثوبها الواسع الفضفاض الطويل، الصغار ينهضون جملة

ويقعدون في مضاجعهم يتمطون، الأم تصرخ بصوتها العجوز الحاد فينفذ إِلى أعماق حليمة التي تكاد تنتهي من حلمها السابع:

ـ «حليمة.. حليمة.. انهضي أيتها الكسولة البائرة.. انهضي حتى لا تحرقك الشمس»..

وتفتح حليمة عينيها على يوم جديد، ويفتر ثغرها عن ابتسامة تتوسّل بها أمّها أن كفاها ما سمعت، وتموت الابتسامة على شفتيها الشابتين، وتنزع الغطاء عن جسدها وتطرق بعينيها إِلى الأرض متحاشية نظرات أمّها:

ـ حتى في كبري لا أرى منكم إِلاَّ التعب.. حتى في كبري لا أجد من يريحني.. ليتني ما شقيت من أجلكم.. انهضي.. تحركي..

وتداخلت أصوات الصغار في ضجّة بريئة:

ـ الإفطار يا أمّي..

واستدارت الأم ومضت دون كلمة، وجرّت حليمة جسدها المنهك في إعياء إِلى حيث تعلق رداءها، ولفت جسدها الفاره به وامتطت «شبشبها» إِلى المطبخ، وظلال واحد وعشرين عاماً من الشقاء تحول بينها وبين أية بارقة أمل في لحظة استرخاء.

ـ إيه.. إييه.. القهوة.. أتسمعونني أم لا؟

كان أخوها محمود الذي يكبرها بعام واحد، وكان يعنيها، وكانت تحمل له من الحبّ قدراً كبيراً رغم أنّه لم يحدث أن أسمعها في حياته كلمة حانية واحدة، وابتسمت لكلماته التي تطرق أذنيها كل صباح، ولكنها عادت فاكتأبت، وخرج الصوت من أعماقها كسيراً:

ـ حاضر.. حاضر يا محمود.. لحظة.. لحظة واحدة.

وحاولت أن تقول أي شيء آخر لتشغله بكلماتها عن ردّ تدرك مضمونه، ولكنها لم تجد ما تقوله، وتوقعت أن يقول أية كلمة غاضبة تعلن عن سخطه وتبرّمه، غير أن الصمت خيّم من جديد، وانتبهت إِلى القهوة التي تكاد تفيض، فرفعت الإناء عن اللّهب وصبّت شيئاً منه في فنجان كانت أعدّته، وأمسكت بالفنجان من عروته واستدارت في طريقها إِلى محمود واصطدمت عيناها بعينيه، واصطدمت يدها الممسكة بالفنجان بصدره ـ وغاص قلبها ـ واندلقت القهوة على قميص محمود وسرواله، وجفّ ريقها وتملكها خوف من المجهول.

❖ ❖ ❖

الصغار في الشارع، وأصواتهم المتنازعة تحمل الألفاظ البذيئة إِلى دواخل البيوت، وبائع الأدوات المنزلية العجوز يحمل على ظهره كيساً كبيراً معبّأً بالأكواب والحلل والملاعق والسكاكين،

وصوته العجوز ينادي على بضاعته الرخيصة في وهن، وزغرودة تنطلق من أحد البيوت معلنة عن نجاح الابنة في امتحان الإعدادية، وحدوات الخيل تدقّ الطريق المعبّدة في أوقات متباعدة، ومحركات السيارات المتمهّلة تحدث ضجيجاً مقبولاً.

كانت الساعة العاشرة، وحليمة تنشر بيديها الواهيتين، الغسيل على الحبل الطويل الذي يشطر سماء وسط الحوش إلى نصفين، وثلاث جارات يقعدن على الحصير إلى جانب الحاجّة يحتسين الشاي الأخضر «ويشرِّحن» ابنة ناظر المدرسة التي ترافق أباها إلى دور الخيّالة، ويترحمن على أيام الحياء والأدب التي ذهبت ولن تعود.

ـ خذي هذه الصحون إلى المطبخ.. وافطري إذا شئت.. وحاولي أن تنتهي من الغسيل حالاً حتى تشرعي في الإعداد للغداء.

وتحمل حليمة الصحون إلى المطبخ، وتعمل يداها في فتات الخبز وما تبقّى من حبّات الزيتون، وتبلل ريقها بقليل من الماء البارد، وتكتشف أنّها تقاوم الرغبة في عدم الأكل بالمستحيل، فتضع فضلات الزيتون والهريسة في الثلاجة، وتقذف بفتات الخبز إلى القفة، وتستدير عائدة إلى الحمام حيث تنتظرها الملابس التي لم تغسل بعد، ويفتح باب البيت ليصفق، ويبدو الحاج بيده

القفّة، وتسرع حليمة إليه وتأخذ منه القفّة لتفرغ محتوياتها في الثلاجة، ويدلف الحاج إِلى الحمام، وتجسّ إحدى الجارات النبض:

ـ يحسن بنا أن ننهض إذ ربما أراد الحاج أن يقضي حاجة أو أن يركن إِلى الراحة..

ـ «أبداً.. أبداً إنه يحضر مصروف الغداء في العاشرة كل يوم ثم يعود إِلى دكانه».

وتنفست النسوة في ارتياح، وبدت حليمة على عتبة المطبخ تنتظر خلو الحمام لتعود إِلى الغسيل، ومنَّت نفسها بأن تتحدّث النسوة عن أي شيء حتى تسمع جديداً في يومها، ولكنهنّ لذن بالصمت، وصفق باب الحمام بعنف، وخرج الحاج ثائراً ومزمجراً، فأخفت الجارات وجوههن وفتحن آذانهن في فضول:

ـ (المريلة) أتلفت تماماً.. أتلفها (البوطاس).. أتلفها الإهمال.. أفقدها لونها.. ألا تعرفن يا جاهلات أن (البوطاس) يفقد الملوّنات ألوانها.. آه.. آه.. لم أعد أطيق هذا الإهمال.. إنني أنوء بحمل لا يستحق العناء.

وتألّمت الحاجّة، استاءت لكلمات الحاج الغاضبة أمام جاراتها، أحسّت بأنها جرحت في كبريائها، وأفرغت جام غضبها على حليمة:

ـ لست أدري متى تتعلّمين. . إنك سبب أمراضي وأحزاني. . أنت لا تهتمين بشيء. . أنت أسوأ من أنجبت على الإطلاق. . أي زوج تعس سترمي به الأقدار إليك. . آه يا مصيبتي. . يا حظّي.

وبقدر ما آلمت حليمة كلمات أمّها الجارحة إِلاَّ أن ألمها كان أكبر لقولها: «أي زوج تعس سترمي به الأقدار إليك». . ومزقتها الإهانتان. . وضاق صدرها حتى أحست بضلوعها تكاد تتحطّم. . ودق في أذنيها لفظ يحيل أيامها إِلى يأس مدمّر.

ـ عانس. . أنت عانس. . لا أحد يرغبك. . وستعيشين أيّامك رهينة هذه الجدران التي لا تنضح بغير التعاسة.

دلفت إِلى غرفتها في خطوات سريعة، وانخرطت في بكاء مرّ، ولم تسعفها في أحلك لحظاتها كلمة مواساة واحدة، كرهت نفسها أكثر مما فعلت في أي يوم مضى.

❖ ❖ ❖

انتهى الحاج من صلاة العصر وانتعل حذاءه فيما عملت يداه في السجادة تلفّها. وجاء الصغار من وسط الحوش وقد انتعلوا أحذيتهم وسرّحوا شعورهم، وتحدّثت عيونهم قبل أن تنبس شفاههم، وتشاغل الحاج عنهم ووضع السجادة فوق سطح (خزانة الملابس) العتيقة التي تحتل جزءاً كبيراً من مساحة حجرة نومه، ونطق أوفر الصغار جرأة. .

ـ نحن مستعدّون . . هات أعطنا ثمن التذاكر . . سنعود قبل حلول الليل.

وقبضت يد الحاج على القطع المعدنية التي تثقل جيبه فأعطى كلاً منهم مائة درهم، ولكنَّ صوتاً محتجّاً صرخ في دلال:

ـ بم نشتري الحلوى والمكسرات؟؟.

وقذف بعشرة دراهم لكل منهم.

وخرج.

وخرجوا خلفه محدثين ضجّة مرحة.

وتمنّت حليمة لو كانت ولداً لتنعم بكل هذا الدلال، وحسدت إخوتها على سعادتهم ولون حياتهم واستاءت من فكرة أنها تحسدهم، وعالجت استياءها بأن احتضنتهم في خيالها وابتسمت لشقاوتهم وخبثهم.

الساعة كانت الخامسة، والبيت كان خالياً إلاَّ منها، وتحركت في خطوات متألّمة تبحث عن شيء تفعله، وانتهت من جولتها الصغيرة بين الجدران دون أن تصل إلى شيء. . واستغرقت في تأمّلاتها من جديد، وتساءلت في أسى إلى متى ستظل في سجنها هذا تلوك وحدتها وسأمها، وشعرت بضيق يجثم على صدرها رأت أن تزيله بأية حركة. وتنبهت إلى وجود مجلات في

«المربوعة» التي يعسكر بين جدرانها محمود، وقعدت على سرير أخيها تتصفح إحدى المجلاّت التي تزدحم صفحاتها بصور البنات. وتوقفت عند صورة فتاة تكاد تكون عارية. واستغربت للمرة الأولى كيف يسمح أهل هذه الفتاة لابنتهم أن تنشر صورتها وعلى هذه الشاكلة بالذات، وبرَّرت هذا الفسق بـ«ما بعد الكفر ذنب»، وتمنت أن تعرف ما تقوله المجلة عن الفتاة العارية، وطفت على السطح عقدة الأميّة فرمت بالمجلة في غضب ونهضت.

صافحت عيناها الأضواء المنبعثة من النافذة، وفرحت وأحسّت أنها تطل على الحياة التي تتدفّق حيوية عبر النافذة المواربة، وتملكتها رغبة في أن تطل من النافذة على الشارع، واغتال سأمها كلَّ مخاوفها، وأتت على تردّدها بخطوتين خطتهما إِلى النافذة في جرأة لم تتعوّدها في نفسها من قبل، وأطلّت على الشارع الكبير، وتابعت عيناها السيّارات المنطلقة في جنون، وتمنّت أن تجن كسائقيها لتندفع بعيداً، ومرت عربة (كارو) يزدحم سطحها بالنساء والرجال والأطفال، وحسدتهم جميعهم على نعمة النزهة التي يتمتعون بها. والتقطت أذناها أصوات الصغار الذين يلهون تحت نافذتها في طفولة شقية، وعاودتها ذكريات طفولتها التي كانت أوفر حظاً من صباها، وابتسمت لأطياف الماضي السعيد، وخالت نفسها صغيرة تلهو في الشارع دون أن تثير انتباه

أحد.. ولمحت فتى في عمر أخيها محمود يقف على الرصيف المقابل لنافذتها، وتأكّد لها أنه يراقبها فاختفت خلف الستار ولكنها فرحت كطفلة، وتلصصت عيناها تتابع حركاته التي يريد أن يخفي بها عن المارة غايته، وتخدّرت أوصالها وأحسّت بسعادة تطغى على كل حواسها، وتمنّت أن يكون لها حب وأحلام، ودغدغتها تخيلاتها الشابة، وسرحت خلف مستقبل الأيام، والفتى الواله الذي لا يكف عن الوقوف ولا يمل الانتظار، وأصوات الخاطبات تملأ البيت مرحاً وحياة، والزغاريد والفرح وأيام العرس، وعرف ثغرها لأول مرة بسمة الرضى، وأزاحت الستار قليلاً بيد مرتعشة فأباحت له فرصة تأمّلها للحظة، وارتدَّت إلى الخلف فزعة، وأحست بالإثم، وارتعدت فرائصها حتى كادت تقع، قبضت أصابع متخشبة على عنقها، وجرّتها يد قوية إلى الخلف، وبردت أطرافها، وخارت قواها، واستسلمت لقدرها، وجرتها اليد إلى وسط الحوش، وانهالت لكمات محمود القوية حيثما اتفق، وتقبّلت ضرباته دون أن تفر من عينيها دمعة أو يصدر عنها صوت، وشفى محمود غليله لكماً وركلاً، ولملمت نفسها عن الأرض في إعياء ولاحقتها كلماته الجارحة الغاضبة:

ـ ستلطخين أيامنا بالعار يا فاجرة.. إنني بريء منك إلى يوم الدين، ولكنني سأموت كمداً من أفعالك، وقبل أن أموت سآتي عليك.. أنتهي منك.. كيف سأقابل الرجال في الشارع؟ كيف

سيرونني وسلوكك المشين من خلفي حيثما أرحل؟ يا ربّ ما هذه الواقعة السوداء؟ ما هذه العانس التي أريد لنا أن نتحمّل كل أعبائها؟ كل أخطائها.. رحمتك يا رب.. رحمتك..

❖ ❖ ❖

الشمس تغيب، والأقدام تقل العائدين إِلى بيوتهم مع المغرب، وأصوات الأمّهات تأتي من خلف الأبواب الموصدة تنادي الصغار أن يعودوا، والصغار يدقّون الأرض بأقدامهم غير عابئين، لاهون بلعبهم عن كل شيء، والحياة في الشارع الكبير تسعى إِلى الراحة والنوم، والجارات يتسربن من بيت الجارة التي ولدت في اليوم السابق إِلى بيوتهن، والحاجّة تدير المفتاح في القفل وقد أدهشها الصمت الذي يخيّم على البيت والظلام الذي يلفه.

حوّلت الحاجّة عنها «جردها» وتركته متكوراً في وسط الحوش، وسحبت قدميها من «الشبشب» وأضاءت المصباح الكهربائي فغمر نوره الحوش، ومضت في خطوات فزعة متحفزة إِلى غرفة الأولاد ودفعت الباب وأضاءت الغرفة واتقدت غضباً:

ـ سبحان الله.. اللّهمّ لا حول ولا قوة إِلاَّ بالله... لست أدري ما الذي يجعلني أعتمد على فتاة مثلك في شؤون البيت؟.. كان الأجدر أن أنسى وجودك.. أن أعتمد على نفسي في كل

شيء وأمري لله.. النوم.. النوم.. النوم... تقضين جلّ يومك نائمة.. إنهضي أيتها البائرة.. إنهضي يا مضحكة البنات.. إنهضي يا مصيبتي..

وحليمة ملقاة على فراشها لا تتحرّك، مغمضة العينين لا تسمع ولا ترى، مستغرقة في نومها العميق لا تأبه بما يدور حولها، وخالت الأم حليمة تدعي النوم، تتحايل عليها بإعياء مفتعل يجنّبها مهمّة طهي الطعام الذي كانت كلّفتها به منذ العشية، وأعماها الغضب عن كل ما ترى، واندفعت في ثورة إلى حيث حليمة وصفعتها على وجهها مفرغة شحنة غضبها التي تعذب كل ذرة فيها، وفتحت الفتاة عينيها في إعياء، وبدت صورة الأم الغاضبة مهزوزة غير واضحة، وذعرت الأم، فيما عادت حليمة إلى إغفاءتها، وتحسّست اليد العجوز الوجه الناعم في حنان مفاجىء، وتلطخت الأنامل بدم قليل ينزف من جرح صغير، وفزعت الأم للبقع الصغيرة السوداء المنتشرة على وجه ابنتها، وصرخت الأم بأعلى صوتها مولولة:

ـ ووك.. ووك.. ووك..

وتدفقت جموع الفضوليين من الجيران والمارّة حتى ازدحم بهم المنزل، والتفت النسوة حول السرير بينما ظل الرجال في وسط الحوش يتساءلون في قلق:

ـ ماذا حدث؟.. ماذا يمكننا أن نفعل؟

ومرق محمود من بين الرجال إِلى حيث تتجمع النسوة فأغلق باب الحجرة، ثم التفت إِلى الرجال الواقفين في وسط الحوش يدفعهم إِلى الشارع في غضب:

ـ لا شيء.. لا شيء.. أختي مرهقة وكفى.. سأتدبّر الأمر بنفسي..

وخرج الرجال إِلى الشارع، وأوصد محمود دونهم الباب، وعاد محملاً بشحنات من الغضب، فركل باب الحجرة بقدمه ودلف إِلى حليمة التي وعت من لحظة بعد أن استنشقت بصلاً مقشوراً، وحالت النسوة وولولات أمّه بينه وبينها، وخرج مغلوباً لا يكاد يتبيّن أين يضع قدميه.

❖ ❖ ❖

الساعة العاشرة مساءً، الصغار أمام الشاشة الصغيرة يتابعون في مرح إحدى المسلسلات والحاجَّة تجلس على نطع مستندة إِلى الجدار، والشاي الأخضر يغلي على النار، والحاج على كرسيه العتيق ينفث في قلق سحابات الدخان:

ـ إن إنجاب البنات كارثة تصيب الرجال.. لو كانت ولداً لما حدث ما حدث.. ليته قتلها وأراحني منها ما دامت ألسنة الناس ستلوك فضيحتنا..

ـ إذن فأنت توافقه على فعلته. . كنت أظنك تترقّب رجوعه لتثأر لابنتك المسكينة. . ولكنكم من طينة واحدة. . قساة. . قساة. .

ـ أسكتي. . أنت التي أفسدتها. . البنت أمٌّ دون شك. .

وتركن الحاجَّة إلى الصمت تجنباً لثورة ربما ذهبت حليمة ضحيتها، وتجر حليمة قدميها إلى غرفتها الموحشة بعد أن يئست من الجلوس إلى الشاشة الصغيرة بجوار إخوتها، وتضيق بها دنياها، وتنبض جراحها ومواقع الركلات واللكمات بألم كبير، وتلقي بجسدها المنهك على فراشها، وتبلل مخدتها بالدموع، ثم لا تلبث حتى تستغرق في نوم عميق، تمتطيه صوب يوم آخر.

الحاج مسعود

الحاج مسعود

الليل يخيّم سكونه على المدينة النائمة، والشوارع مقفرة تلوك ساعات الليل في ملل، والطرقات غير المعبّدة تنفض الأتربة المسحوقة، والرياح الخفيفة تتسلّل لسعاتها الباردة إِلى غرف النوم عبر النوافذ والأبواب فتقلق النائمين، والمصابيح الكهربائية المتناثرة في أنحاء متفرقة ترسل أشعتها الكالحة في إعياء، والحاج مسعود على السرير العتيق إِلى جوار زوجته المنهكة يستجدي النعاس أن يغرقه في نوم عميق ينتزعه مما أثاره حديثه وزوجته عن الإنجاب من أفكار، ولكن أفكاره تقذف إِلى وعيه المتوتر بالسؤال في خبث ليتحرّك لسانه في حلقه:

ـ الهناء.. الهناء يا حاجّة أهمّ عندي من الأولاد.. أهمّ عندي من أي شيء في هذه الحياة.. نحن لم نعرف في حياتنا لحظة شقاء واحدة.. إننا سعداء.. مستورون.. فلنرفض الهواجس الخبيثة التي تثيرها أحاديث الناس وتعليقاتهم، ولنعش حياتنا دون أن نعبأ بحديث أحد.

وتململت الحاجّة في فراشها، وتمنّت أن تجد في نفسها قدرة على رجائه أن ينام، ولكنها عادت تجامله وقد عالجت إعياءها بما تأكّد لها من حبّه.

قالت:

ـ ولكن لا يأس يا حاج.. لا يأس ما دمنا نؤمن بقدرة الله.. إن الأطفال يملأون البيت سعادة وبهجة دون شك، والحياة وسط ضجيجهم ومرحهم أحلى مذاقاً وأوفر لذّة.

ـ إنني أعرف هذا يا حاجَّة ولكن ماذا نستطيع أن نفعل إزاء إرادة الله سوى التذرّع بالصبر والتعلّق بالسعادة التي نصنعها من فلسفتنا لقضاء الله.. اسمعي يا حاجَّة.. حاجَّة.. حاجَّة..

ولكن الحاجّة لم تجب لأنّها كانت قد استغرقت في نوم عميق، واستاء الحاج لنوم زوجته خلال حديثه إليها، وتطوّع حبّه الذي عمر في قلبه لعشرين سنة طويلة مدافعاً، فالحاجّة المسكينة تفتح عينيها على الدنيا كل يوم مع آذان الفجر لتوقظ الحاج فيتوضآن ويصليان صلاة الفجر، ثم تعد الإفطار بينما يجلس الحاج يرتل الآيات بصوت جهوري اعتاده الجيران وأحبّوه، وتنشغل المسكينة طيلة يومها وبعد ذهاب الحاج إلى العمل بالكنس والتنظيف والغسل وإعداد الأكل، فلا يأتي اللّيل حتى يكون قد بلغ منها الإعياء مبلغاً يفرض على عينيها المجهدتين

الاستغراق في النوم والإخلاد إِلى الراحة.. فكيف يلومها إن أغفت بعد كل هذا التعب؟

وابتسم في رضى، وانتبه إِلى أنه على بعد ساعتين من الفجر وإِلى أنّه لم ينم بعد، واستبدّ به القلق وحاول أن يغمض عينيه المسهدتين، وأحسّ بما يشبه ذرّات الرمل في عينيه ففركهما بأصابعه مبسملاً محوقلاً، وأزعجته فكرة أن يعمى ويفقد بصره، فنهض مفزوعاً وقعد على الفراش يدير عينيه في أرجاء الغرفة شبه المضاءة، واستعاذ برب الناس من الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور النّاس، وهمس لنفسه بسورة الكرسي ثم تمدد من جديد، واستيقظت الحاجّة على تململ الحاج، وبدت في عينيها الدهشة:

ـ ألم تنم يا حاج؟

ـ عيناي يا حاجّة.. إنني أحس بما يشبه الرمل فيهما حتى أنني اعتقدت أنني سأعمى..

ونهضت الحاجّة فقعدت وبدا على وجهها الفزع:

ـ أوه يا رب.. أرني عينيك.. قم أرنيهما..

وقعد الحاج وتحركت الحاجة فواجهته، وامتدت أصابعها تفتح عيني الحاج على اتساعهما وتتفحصهما في لهفة، ونفخت

الحاجة في عيني الحاج حتى كادت أن تجعلهما تدمعان معتقدة أنها ستزيل ما علق بأهدابهما من تراب، وتراجعت إِلى الخلف قليلاً ثم عادت تسأل الحاج:

ـ ها.. أما زلت تحسّ بشيء؟

ـ آه يا حاجّة.. ما زلت أحس بالألم ذاته... ليتني أستطيع أن أفعل أي شيء لإيقافه.

وانخرطت الحاجّة في بكاء مفاجىء، وأفرغت آلام حرمانها من الابن البار ـ الذي يرعاهما في الشدة والرخاء بحنانه ووقوفه إِلى جانبهما ـ في عبراتها التي أبت أن تنتهي رغم كلمات الحاج المواسية:

ـ ليتني لم أحدّثك.. ليتني لم أقل لك كلمة.. لكنها تجربة ستعلّمني في المستقبل كيف أخفي عنك آلامي... كفاية يا حاجّة كفاية أرجوك..

ـ أنت لا تعرف مبلغ حزني كلما أحسست أنني أحرمك بعقري من الابن الذي يرعاك في شيخوختك وعجزك... لا بد أن نجد حلاً.. أعني نجد حلاً لهذه المشكلة.. أنت لم تتعد الأربعين..

ولم تستطع الحاجّة أن تكمل حديثها، وعزّ عليها أن يتزوج

الحاجّ بغيرها من النساء بعد العشرة الطويلة والأيّام الهنية التي شهدتها حياتهما معاً، ومدَّ الحاج يده فاحتضنها ودسّ رأسها في صدره، وقال في كلمات غالبها الحياء:

ـ أنت يا حاجّة كل شيء في دنياي.. صدقيني يا حاجّة أنت كل شيء ولا يمكنني أن أتخلى عنك أبداً.. سنعيش حياتنا ولن يفرق بيننا سوى الموت بعد عمر طويل يا حاجّة.. ثم من أدراك؟ إذ ربما أراد ربّي أن يجنّبنا شقاء ابن عاق، يضل السبيل فلا نجني من ورائه منفعة ويتساوى وجوده بعدمه.

ولفّ الصمت الزوجين من جديد، وغالب النعاس عيني الحاجّة، واسترخى الحاجّ في شبه غيبوبة وقد أنسته دموع زوجته ولوعتها آلام عينيه.

❖ ❖ ❖

الطرقات سريعة عنيفة متوالية تكاد تخلع باب البيت المتواضع، والأصوات مرتفعة تداخلت كلماتها لغطاً لا يفهم منه شيء، والحاج ينهض مفزوعاً ومن خلفه الحاجّة التي ألحّت عليه أن يمسك بعصاه ويستعد لما يخفيه عنه قدره، وسؤال يدق في رأس الزوجين فيجعلهما يرتعدان.

ماذا يحدث خلف الباب؟

وفشلت محاولة الحاج في أن يسترد أنفاسه عند وقوفه على بعد شبر من الباب، وخرجت كلماته تلهث خلف الإجابة:

ـ من الطارق؟

ـ شرطة.. إفتح لو سمحت..

وتصبب العرق بارداً فكسا كل جسده وتنفّس الطمأنينة التي افتقدها للحظات، ورمى بالعصا عبر السقيفة إلى وسط الحوش، ودفعت يده المزلاج عن الباب، ووجد نفسه أمام شرطي الدورية وشاب لم يتعد العشرين بأي حال، وعقدت لسانه الدهشة فلم يستطع أن ينبس بكلمة، ولكن الشرطي حدَّثه:

ـ سامحنا يا سيدي الحاج.. قبضت على أحمد خلال تسلله عبر عمود النور إلى سقف بيتك.. لم أكن أعرف أنه ابنك فاعتقدت أنه جاء يسرقك.. لكن.. معذرة.. هل هذا الشاب ابنك؟

وحدّق الحاج في عيني الشاب الذي بدا كسيراً يحتاج العون، ورحل خيال الرجل إلى متاهات بعيدة، فخاله ابنه، وخاله يتعرّض للموقف ذاته، وحنّ قلبه للشاب وتمنّى أن ينقذه ويهديه فيتجنّب خطره ويجنّب الناس شرّه، وتحرّك الخير في الإنسان، وكاد الحاج ينطق لو لم تأت كلمات الشاب الذليلة المتوسّلة:

ـ سامحني يا أبي. . لن أعود إِلى فعلتي هذه بعد اليوم. . لن أتأخّر في السهر خارج بيتنا أبداً. . سامحني. . سامحني. .

والتقط يد الحاج يقبّلها وقد كاد يركع، وكادت الدموع أن تطفر من عيني الحاج، فازدرد ريقه والتفت إِلى الشرطي:

ـ شكراً لك يا أخي. . إنه ابني. . سأعرف كيف أربّيه. . ولكن إن وجدته ثانية فخذه إِلى المركز دون أن تبلغني عنه، لأنني لا أريد لأولادي أن يسهروا حتى ساعات الصباح الأولى خارج بيوتهم. . شكراً. .

ـ سأسامحك هذه المرة لأجل أبيك العجوز ولكن احذر أن تعود إِلى التسلل ليلاً عبر الأعمدة والسقوف. . لن أرحمك في مرتك القادمة. . السَّلام عليكم. .

وتحرّك الشرطي في خطوات بطيئة إِلى الناصية، ودفع الحاج بالشاب إِلى السقيفة، ودخل من خلفه فأضاء المصباح الكهربائي وأغلق الباب واقتاد أحمد إِلى «المربوعة» دون أن يتكلم كلاهما، وأشار الحاج إِلى الشاب أن يجلس فجلس وأطرق برأسه إِلى الأرض، وقعد الحاج على حافة السرير الذي يحتفظ به لضيوفه:

ـ لم تسلك هذا السلوك يا ابني؟ أنت لا تزال شاباً وأمامك كثير من الفرص. . ولم لا تعمل فتكسب لقمتك بالحلال وتجنّب نفسك ما تتعرّض له من أخطار؟. . أنت تجني على نفسك دون

أن تدري.. أنك منساق وراء أفكار خاطئة.. ألا تخاف ربّك؟ قل.. ألا تخاف الله؟.

وظل الشاب على صمته مطرقاً لا ينطق بكلمة، وأحسّ الحاج أنّه بالغ في تقريعه له وتلمس للشاب الأعذار، فالحاجة ملعونة والإنسان أمام الظروف الصعبة لا يعي تصرّفاته إذْ يتلاشى أمام عينيه الفاصل الدقيق بين الخير والشرّ، والصواب والخطأ، وتلذذ خياله بالمعروف الذي أسداه للشاب، وتمطّى ثم وقف:

ـ إسمع.. إبق حيث أنت.. تستطيع أن تستلقي على هذا السرير إن شئت إِلى الصباح الذي لم يعد بعيداً.. وسأدعو لك أن يهديك الله..

وتخطّى الحاج عتبة «المربوعة» إِلى السقيفة فاصطدم بالحاجّة التي كانت تتابع الأحداث والكلمات في خوف، وفزع الحاج ولاحظت الحاجَّة فزعه فابتسمت رغم ما يعتمل في داخلها من مخاوف وتأويلات، وثار الحاج لشجاعته المهانة فصرخ في الحاجَّة:

ـ ماذا تفعلين هنا؟.. أدخلي.. أعوذ بالله.. أدخلي.. ألا تسمعينني؟

وسبقته الحاجَّة إِلى غرفة نومها، وألقى الحاج بجسده المنهك على الفراش، ووقفت الحاجَّة في وسط الغرفة متسائلة:

ـ أتريد أن تنام؟

ـ لا . . لن أنام . . كيف أنام وذلك الشاب في «المربوعة»؟ ثم إن آذان الفجر ليس ببعيد . . ولكن إسمعي . . إذا أحببت أن تنامي فنامي وسأوقظك عند الأذان .

ومضت الحاجَّة إلى الفراش الذي أغراها أكثر مما فعل مع الحاج، وعاد الصمت يلف المكان من جديد، ومرّت لحظات الصحو متعبة لا تكاد تحتمل، وملّ الحاج تململه في فراشه وانتظاره الأذان، وغط الزوجان في نوم عميق .

❖ ❖ ❖

الساعة الحادية عشرة صباحاً، وقرص الشمس يرسل أشعته الملتهبة إلى كل مكان، وضجيج في الشارع وحركة وحياة، والحاجَّة في فراشها على بعد صفر من اليقظة، وشخير الحاج ينغص إغفاءة الحاجَّة التي بدأت تتململ لتنهض، وفتحت عينيها لتفاجأ بأشعة الشمس وقد أغرقت الغرفة بنورها المتوهج، وقفزت من فوق السرير إلى وسط الغرفة، واستعرضت مخيلتها في لمحة أحداث ليلتها البارحة، وصرخت :

ـ حاج . . يا حاج . . يا حاج . .

ونهض الحاج، واندفع إلى «المربوعة» حافياً، وأطلّ برأسه

من خلال الباب الموارب، ومسحت عيناه في حنو الأب ملامح وجه الشاب المستغرق في نوم عميق، واستدار، والتقت عيناه بعيني الحاجَّة فتعانقت في حبّ، وهمس الحاج:

ـ أعدي لنا إفطاراً جيداً. . .

وابتسمت الحاجَّة ومضت إِلى المطبخ لتعد للحفل الصغير، فلقد أنجبا أخيراً. . أنجبا ولداً مكتمل النمو.

لمسات الهوى

لمسات الهوى

صفق الباب خلفه في غضب ودلف إلى السقيفة في خطوات سريعة متحفزة، فاصطدم قدمه بلعبة ملقاة على الأرض كان أبقاها أحد إخوته الصغار، وتوقف للحظة، ثم ركل اللعبة بقوة حتى طارت فاصطدمت بالجدار المواجه وأحدثت صوتاً مزعجاً جاءت الأم على أثر سماعه من وسط الحوش مستفسرة:

ـ ما الذي يحدث؟

وقرن أحمد حاجبيه وثبّت عينيه في عيني أمّه محتجّاً على تدخّلها:

ـ أنتم.. ما الذي يعنيكم في الذي يحدث؟!.. لا شيء على الإطلاق.. دعوني فقط.. إن أموري لا تهمّكم.. لا تهمّكم أبداً..

وترك أمّه واقفة في السقيفة، وتحرك إلى «المربوعة» وقعد على السرير لتعمل يداه في حذائه تخلعه، ولحقته أمّه، ووقفت

عند الباب متابعة يديه المرتجفتين وأنفاسه المتلاحقة:

ـ ماذا حدث؟.. أرسبت في الامتحان؟..

ـ...

ـ أجبني.. أرسبت في الامتحان؟

وقذف بحذائه بعيداً وارتمى على السرير وقد رفع عينيه إِلى السقف:

ـ نتيجة الامتحان لم تعلن بعد، فهل يمكنني أن أنعم بلحظة هدوء في هذا البيت؟!.. أغلقي الباب من خلفك ودعيني لوحدي..

وتمهّلت أمّه قليلاً تتفحّصه بعينين خبيرتين، وتأكّد لها أن ابنها الذي ربّته تسعة عشر عاماً ففهمته خلالها خير فهم يعاني من مشكلة أكبر من أن يقدر على حلّها، وابتسمت بينما امتدت يدها إِلى أكرة الباب تغلقه، فثورة أحمد سرعان ما ستتلاشى ليأتيها ضحوكاً سائلاً نصحها.

وشرد أحمد.

«لست صغيراً.. أبداً.. إني أكبر من أن تسخر مني، من أن تتخذني تسلية، كنت أظنّها تحبّني، تحبني كما أحبّها، تحبّني بصدق، ولكنها لا تختلف عن غيرها من بنات اليوم.. لعب..

لعب.. مجرد إضاعة للوقت، ولكنه ذنبي وإِلاَّ لما أحببتها، لما أعطيتها قياد أحلامي وآمال غدي».

وأحسّ بالدنيا تضيق، وجدران الغرفة تقترب وتقترب حتى تكاد تطبق عليه، دمعت عيناه ورأى الحياة أتفه من أن تعاش بدون نعيمة، نعيمة التي أحبّها بكل حرمانه، بكل شوقه لكلمة الحب الحانية، بكل صبره طيلة سنواته القاحلة.

وتخيّل وجهها الصغير بملامحه الدقيقة المعبّرة، وعينيها الواسعتين العسليتين، وابتسامة ثغرها التي تفيض حناناً وعذوبة وصفاء.

ـ «إسمع يا أحمد.. إني أقدّر لهفتك على رؤيتي لأن نفسي تجيش بذات القدر من اللهفة، ولكنني أخشى كلام الناس.. أخشى أن تتناولنا ألستهم القذرة.. إنني أرجوك يا أحمد أن تمتنع عن المرور من شارعنا...»

ـ «ولكن.. كيف أراك يا نعيمة.. إن أنا..».

ـ «سنكتفي بلقاء واحد في الأسبوع.. ستجدني عشية كل يوم جمعة عند ضريح المرابط.. إنني أزور وأمي ضريحه عشية كل يوم جمعة..».

واختفى وجهها الصبوح العذب، وانتبه إِلى أنّه في ظلام غرفته

الدامس يجترّ ذكرياته، وتأوّه في حسرة، وكوّر قبضته بشدة ولوّح بها في الهواء وكأنه يتوعد أحزانه، وأيقن أنه أتعس إنسان، وتألّم لتعاسته وعاودته دموعه من جديد.

أين اختفت يا إلٰهي؟!.. إلى أين رحلت دون كلمة وداع واحدة؟! كيف ارتضيت أن تغيب عني أربعة عشر يوماً كاملاً؟ ألم أكن حبّها الوحيد الذي تفاخر به أمام زميلاتها؟.. ولكنها أصغر من أن تحب.. إن ستة عشر عاماً زمن لا يكفل نضوج المرأة.. لا يكفل فهمها للمشاعر كما يجب أن تفهم.. لو كانت أكبر قليلاً لما لعبت.. لما امتطتني في فراغها... ولكن.. لا يمكن أن تكون نعيمة كذلك... إنها ناضجة، عاقلة، تعرف الموضع الصحيح لقدمها... يا نعيمة لمن تركتني؟!!

ودق باب البيت بعنف دقات سريعة متوالية، واندفعت مجموعة من الصغار إلى السقيفة مثيرة ضجّة كبيرة، وشعر نحوهم بكره مفاجيء، ونهض في غضب ليفتح الباب ويصرخ فيهم:

ـ أخرجوا.. أخرجوا يا كلاب..

وقبضت أصابعه على عنق أخيه الصغير وصفعه على وجهه فوقع الصغير على الأرض مولولاً، بينما اندفع بقية صغار الجيران نحو الباب يفتحونه ويلوذون بالشارع، وجاءت الأم مستاءة، فرفعت الصغير إلى صدرها تكفكف دموعه:

ـ يا أحمد يا ابني.. قم إلى الحمام فاغتسل ثم غيِّر ملابسك واذهب إلى الكورنيش.. إلى الحديقة العامّة.. إلى دار الخيالة.. قم يا ابني ولا تسجن نفسك عشية هذه الجمعة في غرفتك.. سأعطيك ديناراً.. إنتظر..

وتركته إلى غرفة نومها. فعاد أحمد إلى «المربوعة» وانتعل حذاءه وصفق باب البيت خلفه دون كلمة.

شوارع المدينة تضج بالحياة والحركة، وقدماه المتعبتان تبدآن رحلتهما العاشرة إلى حيث تقيم نعيمة، واليأس يقبر في نفسه أية بارقة أمل. وخاطرة سريعة تدفع إلى شفتيه بابتسامة طارئة، وتنشط قدماه حتى كاد أن يجري وقد سيطرت الخاطرة على تفكيره تماماً، وانتبه إلى أنّه يقف أمام دكان الجزارة الملاصق لبيت نعيمة.

ـ نعم.. تفضل..

ـ عفواً يا سيدي ولكنّي أبحث لأسرتي عن سكن، ولقد بلغني أن البيت الملاصق لدكانك معروض للإيجار.

وابتسم الرجل في طيبة خالها أحمد خبثاً، وأحس أن الرجل يدرك غايته فارتعد حتى كاد ينسحب، ولكن كلمات الرجل شدّته:

ـ أبداً.. إنه منزل الحاج منصور.. والحاج منصور ما زال

مقيماً فيه. . . لعل الذي روّج للشائعة سفر الحاج وأسرته إِلى طرابلس منذ أسبوعين.

ورأى أحمد أن يغطي انسحابه:

ـ ألا يوجد أي سكن للإيجار في شارعكم هذا؟.

ـ إنني آسف. . لا يوجد. .

ولوح أحمد بيده محيياً واستدار ليتحرّك في خطوات نشطة بعد أن وضع يده على سر غياب نعيمة عنه، وأحسّ بأنه ظلم نعيمة وبأنها تحبّه وتحبّه كثيراً، وأن حبّهما أكبر من أن يتعرّض لمثل هذه التفاهات، وأغمض عينيه ثم فتحهما على اتساعهما، وازدرد ريقه، وتمهلت نعيمة ثم وقفت قبالته وقد ازدان ثغرها بابتسامتها العذبة:

ـ أحمد. . كيف حالك يا أحمد؟

وذابت ثورته وتلاشى غضبه وتضاعف إحساسه بأنّه ظلمها وبأنّها تحبّه. . تحبّه. . تحبّه.

ـ حالي؟. . أين كنت؟

ـ سافرنا إِلى طرابلس فجأة. . لم أكن أعلم يا أحمد بأمر السفر. . صدقني. . لم أستطع أن أتصل بك لأخبرك. . لقد كان الوقت ضيقاً. . تعذبت كثيراً لأنني أعرف أنّك ستسيء بي الظن.

وانتبها إِلى أنّهما يقفان في الشارع وأن العيون ترصدهما في فضول كريه، فاستأذنت عينا نعيمة في حياء وتحركت في خفر:

ـ سأراك غداً في الحديقة... عند الخامسة..

وتدفقت دماء الحياة في عروقه من جديد وطغت السعادة على مشاعره فكاد أن يضحك، وسار في خطوات خفيفة غير عابىء بشيء، فالحياة هي التي يعيشها داخله أما ما يحدث خارج ذاته فهي حياة الآخرين وحدهم، وتمنّى ألاّ يلتفت الناس إِلى غير أنفسهم حتى يتمكّن من لقاء نعيمة كيف شاء ومتى شاء وأين شاء.

نقر الباب بخفّة مقلّداً لحناً شعبياً مرحاً، وفُتح الباب فدلف إِلى السقيفة ليحتضن أمّه ضاحكاً:

ـ سامحيني يا أمي.. سامحيني..

وفوجئت الأم ولكنها بادلته ضحكته، فمضى إِلى الحمام واغتسل ثم عاد إِلى «المربوعة» مدندناً بأغنية تحبّها نعيمة، وارتدى بذلته على عجل، وسبح في سماء «المربوعة» والسقيفة فوسط الحوش كريشة، ثم نادى أمه مداعبا:

ـ أمي... ا.. م.. ي..

وخرجت أمّه من وسط الحوش وقابلت مرحه بابتسامة حانية.

ـ نعم

ـ لقد نفّذْت جميع تعليماتك. . اغتسلت. . ارتديت بذلتي الجديدة. . وهأنذا في انتظار الدينار.

ـ بكى أخوك كثيراً ثم نام. . ما كان يجب أن تضربه يا أحمد. . أن تحطم كبرياءه أمام الصغار.

واندفع إِلى غرفة نوم أمّه، ووجد الصغير ملقى على السرير يغط في نوم عميق لا تقلقه إِلاَّ عبرات متباعدة، فرفعه وقبَّله في جبينه، وفتح أخوه عينيه لينخرط في بكاء طفولي وليتملص من بين ذراعيه، وقابل أحمد بكاء أخيه وتملّصه بروح مرحة وشرع يدغدغه ويداعبه إِلى أن كف عن البكاء، وعاتبه بعينين دامعتين:

ـ لماذا ضربتني؟. . . إنني لم أفعل أي شيء. .

ـ كنت نائماً فأزعجتني وأصحابك بضجيجكم. . وعلى كل حال سامحني. . لن أضربك بعد اليوم أبداً. .

وطاب خاطر الصغير واشترط أن يصحبه أحمد معه إِلى دار الخيالة، ووافق أحمد بينما امتدت يده تنتزع الدينار من بين أصابع أمّه في خفّة.

ـ لست أدري لم كل هذا الاحتراق يا أحمد؟. . إن النجاح والرسوب بيد الله يا ابني فدع الأمور له يسيّرها كما يشاء سبحانه، ولا تنس أنك صغير وأن الدنيا ما زالت قدّامك. .

وأجاب أحمد في خبث كادت عيناه تنطق به:

ـ ولكنني ذاكرت كثيراً كما تعلمين وقد خلت نفسي راسباً فعزّ علي أن أرسب بعد المجهود الذي بذلته، لكن الدنيا ما زالت أمامي بكل إغراءاتها وفرصها..

وأعدت أمّه أخاه ونادته مستعجلة إيّاه فجاءها صوته من وراء باب «المربوعة» المغلق:

ـ لحظة.. لحظة واحدة..

وأشبع صورة نعيمة تقبيلاً ثم أخفاها في جيب معطفه، وفتح باب الغرفة وأمسك بيد أخيه وخرج إلى الشارع.

ومضى يحلم.

الدنيا ما زالت أمامي.. سأفعل الكثير.. سأنجح وأنجح وأنجح وسأتزوج نعيمتي الحبيبة وسأعيش حياتي الرائعة في ربوع أحلامي.

وضغط على اليد الصغيرة المختفية في كفّه وتخيّلها يد ابنه في طريقهما إلى دار الخيالة، وأحاطته حالة من الفرح سرت في كيانه بهجة فاضت بها عيناه وثغره وملامحه وخطواته.

اللحظات الحرجة

اللحظات الحرجة

قرع الجرس فأحسّ بقلبه يغوص بين جانبيه، وبمسام رأسه تفرز عرقاً ساخناً، وبوخزات حادة داخله، وبركبتيه تخوران حتى كاد يترنح، فأغمض عينيه لبرهة ثم فتحهما فاهتزّت ملامح الطلبة والطالبات أمام ناظريه، واختلط لغطهم وضجيجهم بأصوات أقدامهم تدق الأرض مهرولة، فهزّ رأسه في عنف كأنه يمنع الأصوات من أن تدق طبلتَي أذنيه فتزعجه.

ـ هيا يا سالم... هيا.. أنت تجلس أمامي مباشرة ويمكننا أن نتعاون إِلى أبعد حدّ.. ألا تسمعني؟!

وارتفعت اليد عن كتفه وانتبه إِلى وجود طالب يحدّثه، أدرك كل كلمة قالها ولكن بمنتهى البطء، التفت إِلى الخلف، اصطدمت عيناه بعيني سعيد تبتسمان في خبث:

ـ هيا يا سالم... هيا يا رجل..

ليلة البارحة كانت ليلة مزعجة، مكتبه الصغير وأكوام الكتب

والكراسات وقصاصات الورق وسحابات التبغ و«فناجين» القهوة ودقّات المنبّه المنتظمة وعواء كلب جائع وصوت نصف نائم يأتيه بين الفينة والأخرى:

ـ أرقد يا سالم..

بحور العرق والنافذة المفتوحة على مصراعيها، وهواء الغرفة الميت، والفكر شبه مشلول.

ـ.. ويقال عن بعض التصورات أنها متناقضة في ذاتها، ويقصد بذلك أنّنا لو حللنا التصور المتناقض إِلى الأحكام الممكنة التي...

لم لا أعتذر؟!. لا.. لا.. العذر يقبل لمرة واحدة.. واحدة فقط.. لا بد أن أشترك.. إنني سالم.. سأشترك وسأنجح..

ـ هيا يا سالم.. خلاص..

وتحرك في خطوات متثاقلة فاجتاز الممر إِلى قاعة الامتحان، وتوقف عند المدخل، وأجال النظر في الوجوه الكالحة، كلها كالحة رغم ادّعاء بعضها المرح، اعترته طمأنينة مفاجئة، تنفّس بارتياح.

ـ ادخل.

نظر إلى الأستاذ.. ابتسم.. لم يبادله الابتسام... سلّمه ورقة بيضاء.

ـ أسرع.. لا تنس البيانات..

جلس إلى مقعده، أخرج القلم وعبّأ البيانات، وضع القلم أمامه على الدرج، أحسّ برأسه ينغلق، بتفكيره يتوقّف تماماً، عيناه ترى وجوه الطلبة والطالبات، ترصد حركات أيديهم وأرجلهم، أذناه تسمعان الوشوشات، مجرد كلمات خافتة لا تعني أي شيء، الأصوات الهامسة التي يسمعها يعرف فقط أنّها كلمات، هكذا يسمّونها، ولكن ماذا تعني الكلمات إذا رتبت بطريقة معيّنة؟ لا يدري... إنها أصوات وكفى... أصوات فقط... كذلك الكلمات المكتوبة... لا شيء يعني لا شيء...

كل الأشياء لا تعني شيئاً.

كيف سيفهم معاني الكلمات المرتّبة بطريقة معينة لتسأل عن شيء معيّن؟.. إنه لا يدري على وجه التحديد... الحرف مجرد خط.. الجمل مجموعة كبيرة من الخطوط.. الحر لا يطاق... نزع حذاءه.. نزع جوربه..

ـ أنظر أمامك ولا تتحرّك.

دق الجرس... امتدت أصابعه إلى جيبه ليخرج علبة السجاير... اصطدمت أصابعه بالقصاصات الصغيرة... لدغته.. أخرج يده بسرعة.. أسقط علبة السجائر.. انحنى ليلتقطها...

ـ 108 قف.

وقف بعد أن التقط العلبة، اصطدمت عيناه بعينين جاحظتين، صار صوت أنفاسه مسموعاً، بلع ريقه لأكثر من مرة.

ـ ماذا كنت تفعل؟

جفّ ريقه، شاء أن يحرّك لسانه فعجز، حاول أن يبلّل لسانه وشفتيه، فمه يابس، لسانه من خشب، تطوع صوت من خلفه:

ـ سجائر وقعت يا أستاذ.. سجائره..

ـ إجلس وكفَّ عن الحركة..

تهاوى على المقعد، أوجعته صلابة الخشب أحسّ بإعياء ينيم كل أعضائه، أغمض عينيه، رجّح فكرة أن ينام... خاف أن ينام...

ـ دع الورقة مقلوبة.

ـ إقلب الورقة.

أشعل سيجارة، ومسحت عيناه ورقة الأسئلة، مجموعة هائلة

من الخطوط المتباينة، فتح عينيه على اتساعهما فاشتبكت الخطوط، أغمضهما ثم فتحهما ودقّق، غمرته فرحة، وعى عقله المطلوب في السؤال الأوّل. . حسناً انتقل إِلى السؤال الثاني. . قرأه أكثر من مرّة. . . فهم السؤال أما الإجابة ففي القصاصة الثالثة حسب ترتيب القصاصات في جيبه، السؤال الثالث سيجيب على نصفه وكفى. . . عاد إِلى السؤال الأول، قرأه من جديد، كتب على الورقة البيضاء (جيم واحد). . قدح زناد فكره. . ذهل. . لا شرارة من معرفة. . . لا شيء على الإطلاق. . . نسي الإجابة التي طغت على سطح شعوره من دقيقة. . . أحس بنبض الدماء في عروقه جميعها. . . وضع القلم أمامه، أشعل سيجارة ثانية، رفع رأسه وحدّق فيما أمامه، عيناه مفتوحتان ولكنه لا يرى شيئاً، لا بد أن يصاحب الفكر العينين في عملية الرؤية، تركيز العينين فقط على الشيء لا يحقّق الرؤية، وعي من جديد، المكان قاعة الامتحانات، الموجودات طلبة وطالبات وأساتذة ومدرجات ولوحة طويلة وجدران وأسلاك ومصابيح كهربائية وصمت تتخلّله همسات وأوراق إجابة وأوراق أسئلة و. .

ـ مضى من الوقت نصف ساعة.

حسناً. . بقي من الوقت ساعة ونصف الساعة، ومعنى أن يرسب أنّه سيطرد من الكلية، وارتعش واندفعت أصابعه إِلى جيبه

دون احتياط فتحسّست القصاصات المرتبة، واحد.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة.. القصاصة الرابعة تحمل إجابة السؤال الأول، نزع يده من جيبه بسرعة على صوت أتاه من ورائه.

ـ ألم تجب يا سالم؟!

كاد يلتفت ليبصق على وجه زميله، أرعبه صوته، كاد يجمده، لم يجبه، اكتفى بأن أجال النظر فيما أمامه، جاءه الصوت من جديد:

ـ أكتب.. سأملي لك الإجابة.. السؤال الأول.

ـ اش.. سكوت...

عاوده خوفه، ودّ لو أخرس زميله بعنف، سيكتشف الأمر وتحرم عليه الدراسة نهائياً، قرّر ألا يرد، ويكتفي بالصمت، سيعرف زميله أنه يرفض تعاونه، سيكف.

ـ اختلفت الآراء حول مفهوم ن...

أحسّ بشيء يسري في كل ذاته، شيء كبصيص واهٍ من الأمل ومض في داخله، قبضت أصابعه على القلم وكتب بيد مرتعشة.. «اختلفت الآراء حول مفهوم».. توقف... لا يستطع أن يضيف جديداً للأربع كلمات التي كتبها، أصغى جيداً، تمنّى أن يأتيه الصوت الذي أزعجه بادىء الأمر، انتظر، انتظر، لا جديد، لا

عون من أحد، شطب الكلمات الأربع التي كتبها، وضع القلم أمامه على الدرج، امتدت يده إلى جيبه، تحسّست أصابعه القصاصات، أجال النظر في القاعة، اطمأن إلى عدم وجود من يراقبه، قبضت أصابعه على القصاصة الرابعة، التقطت أذناه أنفاساً على بعد قدم منه، داهمه ارتباك جعله يرتجف، تمالك نفسه، أخرج علبة السجائر، التفت، اصطدمت عيناه بجسد ضخم ووجه لامع ونظارة طبية، منحه الوجه ابتسامة حانية، تملقَ الوجه بابتسامة مجاملة، تحرك الأستاذ إلى الطالب الذي يجلس أمامه، تنفس بعمق، التفت إلى زميله الذي يجلس خلفه، رشاه بابتسامة، وجده متجهماً.

ـ سؤال رقم ثلاثة.

عاد إلى سابق قعدته، فطن إلى أنّه ما زال ممسكاً بعلبة السجائر، أخرج واحدة، أشعلها، ملأ رئتيه بنفس عميق منها، نفث الدخان، نظر أمامه، التفت يميناً وشمالاً، اطمأن إلى أن لا أحد يراقبه، امتدت يده في جرأة إلى جيبه، وصلت أصابعه إلى القصاصة الرابعة، انتزعها من بين القصاصات، أخفاها في قبضته، راقب القاعة من جديد، أخرج قبضته، دسّ القصاصة في ورقة الإجابة، استند إلى المقعد، شعر بارتياح، انكب على الورقة، تلصصت عيناه، قرأ سطوراً مكتوبة بخط بالغ الدقة،

غمرته فرحة! إجابة السؤال الأول مضمونة، انطلق يكتب، أنساه انهماكه كل ما يحيطه، صفعته أنفاس ساخنة على خدّه. التفت، اصطدمت عيناه بالوجه اللاّمع ذاته والجسد الضخم ذاته، جمدت دماؤه، أحسّ بمدى ما يحدق بالمغامرة من خطر، تصلبت شفتاه، لم يستطع أن يدفع ولا بابتسامة صغيرة، ظلت عيناه محدقتان في الأستاذ:

ـ حسناً.. ها أنت تجيب.. إستمر...

خطا الأستاذ إِلى الأمام، أحسّ بأنه اجتاز المحنة، لو رأى الأستاذ القصاصة لحدثت كارثة، فضيحة، مصيبة، أخرج منديلاً من جيبه ومسح العرق عن وجهه ورقبته، طغت على السطح مجموعة هائلة من المشاعر المتباينة، أحسّ بارتعاش، ما كان يجب أن يتهاوى إِلى هذا المستوى المشين، كان دائماً موضع احترام وثقة أساتذته، كيف سيرفع عينيه إلى الأستاذ المشرف إِذا اكتشف جريمته، والحَرّ لا يطاق، وجو القاعة مشبع بالتبغ والأنفاس والقلق... و...

ـ بقي من الوقت نصف ساعة.

أزعجه التنبيه، نظر فيما حوله فاكتشف أن كثيراً من الطلبة انتهوا من إجاباتهم وغادروا القاعة، مزّق داخله ألم مفاجىء، أنت راسب على أي حال، أنت الذي قضيت شهراً كاملاً مقيداً إِلى

الكتب والمنبهات والسهر، ماذا سيقول عنك الرفاق؟. انهمك يكتب ما تمليه السطور ذات الحروف الدقيقة.

انتهى من إجابة السؤال الأوّل، نظر إِلى ساعة يده، ما زال لديه من الوقت ما يكفي لإجابة نصف السؤال الثالث.. نصف السؤال الثالث، يا للعنة، ما يغطي نصف السؤال الثالث. غرق في اللاشعور، دقّ بقبضته على رأسه، حاول أنْ يتذكّر، لم يستطع، التفت خلفه، زميله منصرف إِلى ورقته، كارثة، إن إجابة مقتضبة كالتي دوَّنها ولسؤال واحد لا غير لا تعني سوى أنه سيخسر ما دفعه من أعصابه.. و.. جهده.. وتمنَّى لو لم يلجأ إِلى الاستعانة بالقصاصات اللعينة، القصاصات المرتبة في جيبه بلَّدت فكره، خدّرت عقله، جعلته يرمي بنفسه بين سطورها القليلة ليخدع الممتحن بمعرفة قليلة، معرفة منقولة، معرفة لا تمثّله ولا تعطي الممتحن صورة صادقة عنه، وأحسّ بأنه بليد غبي غير شريف، وتألّم شيء في داخله لوصفه ذاته بهذه النعوت، ونسي وقرّر أن يغامر، فالوقت لا يتسع للشرود، وامتدت يده في تلقائية إِلى القصاصة الثانية حسب ترتيب القصاصات في جيبه، انتزعها من بين زميلاتها وأخرجها من جيبه وكأنه لا يأتي عملاً خطيراً، ودون أن يطمئن إِلى عدم وجود من يرصد حركاته دسّ القصاصة في ثنايا ورقة الإجابة فوق سابقتها واستند إِلى المقعد وكأن شيئاً خفياً نبّهه إِلى وجود من يراقبه،

رأى أن يخادع فرفع يده، وتنبه الأستاذ الواقف عند المدخل لإشارته فجاءه.

ـ قهوة يا أستاذ.

ـ الوقت قارب أن ينتهي، ما زال من الوقت خمس دقائق، ألم تكمل؟

التفت يميناً وشمالاً، اكتشف أنه بقي مع نفر قليل من الطلبة والطالبات، ذعر، انصرف الأستاذ، انكبّ على ورقة الإجابة، تلصصت عيناه، تحركت يده على الورقة، انهمك في إجابة السؤال الثالث، دق الجرس، يا لسوء الحظ، ولكنه سيصرّ على إكمال إجابة السؤال الثالث، سيتوسل، لن يفشل مهما كلفه الأمر، كل الطلبة يفعلون نفس الشيء، الطلبة يدخلون القصاصات في جيوبهم ويستعينون بها، الجبن عار وهو لا يقل شجاعة عنهم، ووضعت يد كبيرة على ورقة الإجابة، سمراء بأصابع طويلة، أنامت الورقة المرفوعة الحاشية، قلبت الورقة، بدت القصاصات بمنتهى الوضوح، التقطتها الأصابع.

مكتبه الصغير وأكوام الكتب والكراسات وقصاصات الورق وسحابات الدخان، و«إناء» القهوة ودقّات المنبه المنتظمة وعواء كلب جائع وصوت يأتيه من قعر بئر.

ـ كشف أمرك يا فالح!

الأصوات التي يسمعها يعرف فقط أنّها كلمات، هكذا يسمّونها، ولكن ماذا تعني هذه الكلمات إذا رتبت بطريقة معيّنة؟!.. لا يدري.. إنها أصوات وكفى.. أصوات فقط.. لا شيء يعني لا شيء.. كل الأشياء لا تعني شيئاً..

بحور العرق والنافذة المفتوحة على مصراعيها وهواء الغرفة الميت والفكر شبه المشلول، والأيّام، الأيام تدور والإنسان بشر وبعض الأحلام تزعج الطيبين، وصوت نصف نائم يأمره:

ـ أرقد يا سالم.

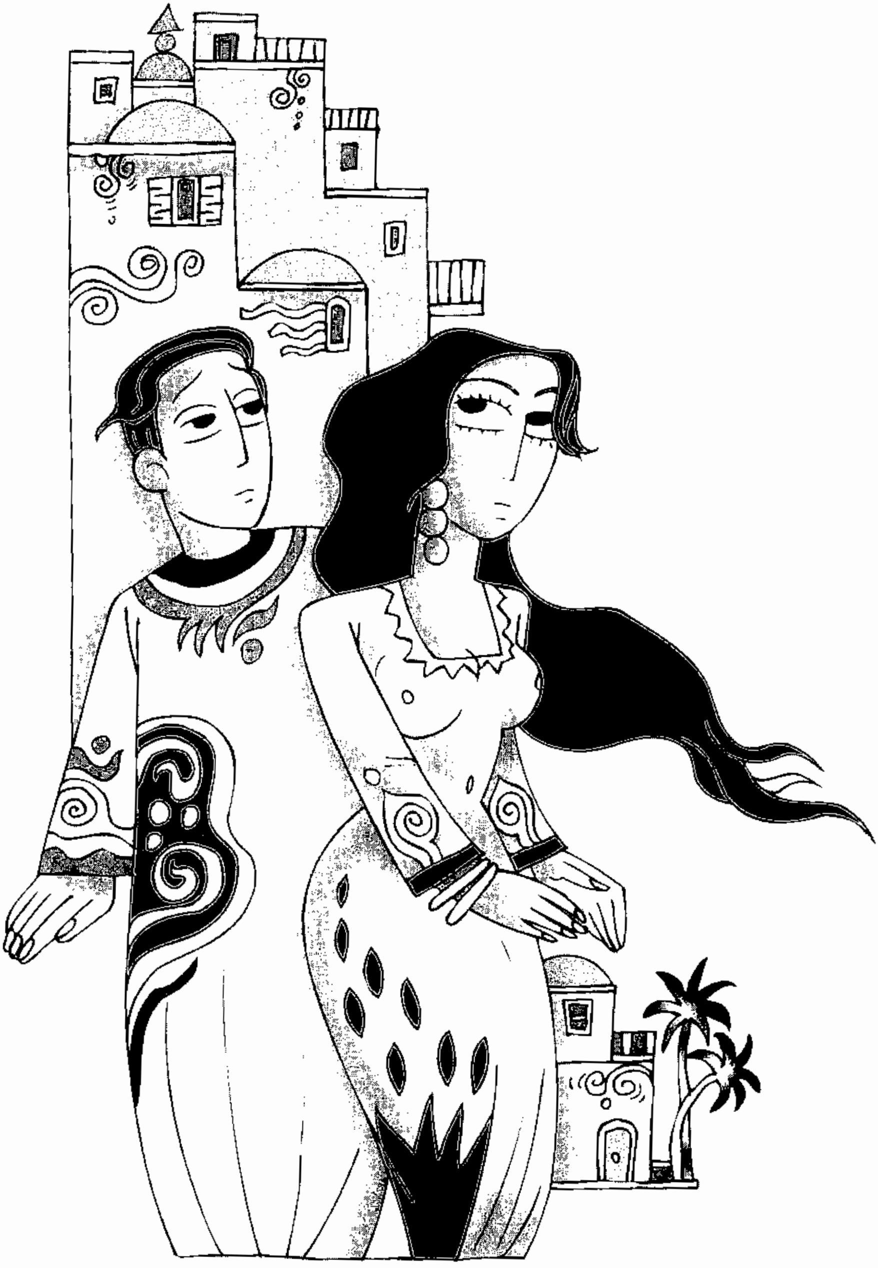

مسعود يعاكس مسعودة

مسعود يعاكس مسعودة

الصيف ينفث لفحات الحر، الشمس تحرق الأخضر واليابس، العائدون من أعمالهم يحدثون ضوضاء، عجوز يشتم سائق عربة كادت تدهسه، طفل يرغم عابراً على شراء منديل، وجه كالح يلصق نعياً على جدار، صبيان يتسابقون على الرصيف الأيمن.

وعلى الرصيف الآخر كانت تمشي في إعياء، تدق بكعبها العالي الأرض في وهن، قفطانها قصير عصري زاهٍ، شعرها أسود طويل متهدّل، خصلة سوداء تحجب نصف عينها اليسرى، صدرها يعلو ويهبط وفق تردد أنفاسها، الطريق يمتد أمامها طويلاً.

ـ يا مسعودة...

وتلاشى النداء في ضوضاء الشارع، وغاص مسعود في أعماقه حتى القاع، وكاد يتراجع، فالكارثة لا شك تقبع على بعد خطوات، لكنه عاد فأصرّ على مواصلة العناء، وجرّ قدميه من

ورائها، عيناه تمسحان الشارع بحثاً عن أي وجه يعرفه، وفكره يعمل في كيف ينغم النداء التالي:

ـ يا مسعودة. .

وتلاشى النداء في ضوضاء الشارع مرة ثانية، ووقعت الكارثة على رأسه، أحسّ وكأنّه يفقد اتزانه، فحتى مسعودة لا تعبأ به، لا تهتم به ولا تكترث، كان يجب أن يحتاط. كان يجب أن يضع خطة للانسحاب دون هزيمة، ولكن فليواجه الموقف في شجاعة الرجال، وليمض في ملاحقتها ساخراً مستهزئاً، فليهدّها كما هدّته.

تنبه مسعود جيداً، فرد قامته، تنحنح، تجرأ، رمى بسخريته:

ـ خدعوك بقولهم حسناء!

وبلع ريقه، فرح، اعتقد أن سخريته تلاشت في ضوضاء الشارع، لكن مسعودة تسمرت في مكانها فتسمر خلفها، حدّقت في عينيه:

ـ ماذا تريد؟ ألا تدعني وشأني؟!

ورغم أن مسعوداً لم يتكلّم إلاَّ أن مسعودة سمعته يهمس:

ـ إنني أحبك يا مسعودة. . . أحبك. . إسألي أختي. . إنني أحبّك. .

ونزلت كلماته برداً وسلاماً على مسعودة، لكنها اضطربت فقرّرت أن تتركه وتمشي، ومشت، وخال في ملامحها أملاً ضئيلاً فتشبّث به، تعلّق بالقشّة، مشى ورائها صامتاً، لاحظ أن الطريق يقصر ويقصر، همس:

ـ مسعودة.. ألا تجيبينني؟.. ألا يمكن أن نلتقي؟؟

وانفعلت مسعودة فضاعفت من خطواتها، وانتعشت بكلمات مسعود فتمهّلت، وعادت تنفعل فأسرعت، ومسعود من خلفها يرجوها أن تجيبه دون جدوى، وتسمر الاثنان للمرة الثانية:

ـ عال والله عال.. بارك الله فيك يا مسعود.

وتنبّه مسعود فانفلت يجري، وتنبّهت مسعودة فنكست رأسها، ودفعها والدها العجوز بعكّازه فمضت كشاة تساق إِلى المذبح.

ـ هذه الكلبة لن تخرج بعد اليوم من البيت أبداً... ما زال والله.. هذه تربيتك.. هذه ابنتك.. إسمعي.. سأقتلها قبل أن تجلب لي العار.. أتفهمين؟

وأجابته أم مسعودة:

ـ إسمع.. إسمعني.. البنت كانت عائدة.. كانت في طريقها إِلى البيت، اعترض طريقها مسعود وعاكسها، لم ترد

عليه، لم تكلمه، ظل يلاحقها فلم تستطع أن تفعل شيئاً.

ـ ولكن لماذا يعاكسها هي بالذات؟.. أنت تجهلين كل شيء.. يا مصيبتي..

دق المنضدة بعكّازه في غضب حتى اهتز فنجان القهوة فكاد ينقلب، لعن الشيطان الرجيم، حدّق في عيني الرجل الذي يجلس قبالته، رمى بالعكاز جانباً وكأنه يعتذر، أمال طاقيته، فتل شاربه، نفث غضبته بينما عمل فكره في الفضيحة التي تهدد كرامته.

ـ البنات بذرة إبليس النجس في كل بيت، البنات نبت شيطاني كان العرب يقبرونه في لحظة مولده، البنات آفة تصيب الرجال، مسعودة بذرة نجسة ونبت شيطاني وآفة أصبت بها رغم أنني لم أرتكب أي إثم منذ وعيت الخير والشر.

وخاف أن يسمع الرجل الآخر أفكاره فمضى يتحدّث:

ـ آخر زمن... مسعود يعاكس مسعودة.. بنت تستحي من ظلها تتعرض لاستهتار ابنك.. عال والله عال.. سترك يا ربي سترك.. واعتدل أبو مسعود في قعدته:

ـ يا سيدي سامحنا.. ولك إن عاكس مسعود مسعودة مرة أخرى.. لك علي أن أسلمه للشرطة بنفسي.. أما في هذه المرة فسأعرف كيف أربّيه.. إني أعدك.

ـ إن كل هذا لا يفيد.. ما الذي يدريني بحالة البنت؟ ربما هتك ابنك عرضها.. أف..

وعرف أبو مسعود أن الرجل أصاب الهدف الذي يدور من حوله منذ مجيئه، ونضب صبره، لكنه رأى أن يلتزم الحكمة:

ـ استغفر الله.. ابنتك يا سيدي تستحي من ظلّها، ثم إنّني أعتقد أن مسعوداً لا يمكن أن يتجرأ و.. إنه مؤدب.. طيب.. صدقني..

ولكن أبا مسعودة كان قد اتخذ قراره، فاستأجر عربة وحمل مسعودة إِلى الطبيب، فالرجل الشريف لا بدّ أن يطمئن.

كانت أم مسعود تنزل الحلة من فوق النار عندما طرق الباب بشدّة، وكان مسعود مستلقياً على فراشه يطالع كتاباً، وكان أبو مسعود يتوضأ في وسط الحوش، وهبّ الجميع إِلى الباب غير أن أبا مسعود سبقهم إليه، فتحه، فوجىء بأبي مسعودة:

ـ إسمع.. أنت مخيّر بين أمرين.. إما أن يستر ابنك ابنتي وإما أن أقتله وأقتلها، لم أعش كل هذا العمر ليصيبني ابنك في كرامتي.

وكان أبو مسعودة يلهث، وكان مسعود يقف في السقيفة، أيمكن أن تؤدي كلمة حب واحدة إِلى كل هذه المشاكل؟ ثم..

انسحب مهرولاً إِلى غرفته، أيمكن أن يتطور الأمر إِلى هذا الحد؟ أيمكن أن تؤدي معاكسة فتاة إِلى الزواج منها؟ . . .

وغاب مسعود في ذاته يبحث عن تبرير لكل هذا، وتنبّه بعد فترة على صوت أبيه كالرعد يدوي في أرجاء البيت الذي كان ساكناً:

ـ ولد حرام. . فضيحة. . فضيحة. . الطبيب قرّر يا سيدتي. . الطبيب قال إن البنت ليست بنتاً. . هذا ولدك مسعود. . كبر. . اعتقدت أنه سيعاونني. . وجدته يورطني. .

وأعاد أبو مسعود وضوءه، ومضى إِلى غرفته فصلّى المغرب ومسعود لا يكاد يفهم شيئاً، غير أنّه أغلق الباب بالمفتاح احتياطاً وظلّ يسترق السمع بقلب واجف.

ـ وقعة سوداء. . سأبيع قطعة الأرض. . لا بد من ستر مسعودة. . مسعودة بنت ناس. . اللّهمّ لا حول ولا قوة إلا بالله. .

وردت أم مسعود:

ـ سبحان الله. . ما زلت غير مصدقة أن مسعوداً. . . يمكن أن. .

وتأوه أبو مسعود وصمتت أم مسعود.

مضى الوقت بطيئاً ومسعود في غرفته لا يكاد يعي ما يدور من حوله، وانتبه إلى وقع أقدام تقترب من بابه، وخاف أن يكون القادم أباه فأغمض عينيه بعد أن قرّر ادعاء النوم، لكن صوت أمّه جاءه من وراء الباب:

ـ افتح الباب يا مسعود.

وفتح مسعود الباب، ونكس رأسه، دخلت أمّه، قعدت على طرف سريره، لفَّهما الصمت للحظات، تأوّهت أمّه، قالت منكسة الرأس:

ـ لو لم يقرر الطبيب.. لما صدقت.. لا أصدّق أن ابني يمكن أن يعتدي على بنات الناس..

وقال مسعود:

ـ إنني لا أكاد أفهم شيئاً.

ونهرته أمّه:

ـ لقد فضحك الطبيب.. مسعودة ليست بنتاً، مسعودة..

ولم تقو الأم على إكمال الحديث، وفهم مسعود كل شيء، وتذكّر في الحال أنه رأى مسعودة ذات مرة تركب سيارة خاصة في شارع خلفي، لكنه كان قد تذكر في وقت متأخر للغاية.

ممنوع الخروج

ممنوع الخروج

ملأت رئتيها بهواء الصباح الرطب، وتحرّكت خفيفة كريشة تداعبها النسمات، متفتحة على الدنيا بعينين متألقتين متشوقتين إلى لقاء خيوط النور التي ترسلها السماء، وأحسّت بدفقة من التفاؤل والإشراق والرضى، فاستسلمت لها تداعبها وكأنّها أمواج خفية تدغدغها في عبث بريء على صفحة ماء، وبدت أمامها الأشياء مبهجة تدعو إلى الفرح والسرور، وتخلّلت أظافرها الطويلة المزوّقة جدائل شعرها الأسود المنساب على كتفيها، وعالجت أصابعها خصلة تداعبها النسمات فنقلتها من فوق جبينها وأودعتها أم رأسها إلى جانب الخصلات الأخريات في حنان، وتنفّست بعمق وكأنّها تستنشق آخر أنفاس الحياة، وكادت كآبة أن تداهم محياها ولكنها رفضتها، وعادت الخاطرة تلح عليها وتعاند رفضها لها، فهزّت رأسها في عصبية وكأنّها تهم بإلقائها خارجه والتخلّص منها. ما سيحدث غداً ربما يحدث بعد غد، فلتدع الغد جانباً،

ولتفكّر في اليوم فقط، اليوم فقط، أما ما بعد اليوم فله شأن آخر، وليحدث ما يحدث، إن أية قوة في الأرض لن تمنعها من لقاء محمود. . . ودهمتها ارتعاشة، وصبغ داخلها بلون جديد، ودغدغتها فرحة مفاجئة، فاستسلمت شفتاها لابتسامة نبعت من أعماقها وتخدرت أوصالها وغابت المرئيات عن عينيها، وبدت ابتسامة تضيء في أفق خيالها فاستحوذت على كل إدراكها.

الأمس كم يبدو قريباً ومحمود من خلفها مرتبكاً على بعد خطوات منها، تولد الكلمة في داخله لتموت على شفتيه، يغتالها الخوف والخجل، ويجبرها إصرارها على عدم الالتفات إليه.

مسكين. . كم أعطى من أعصابه وكرامته، كم احترق في خطواته المرتعشة أمام رفضها، وكم كابد من فك عقدة لسانه:

ـ سالمة. . إسمعيني. . سالمة.

كانت كلماته الأولى التي رددتها لكل زميلاتها في المدرسة وكأنّها تصلي. . سالمة. . إسمها على شفتيه يأتي في صوت مشبع بالرجاء، يلح أن تسمعه، أن تلتفت إليه، أن تمنحه أي رد كيف كان، ولكنها كانت تصرّ على أن تدّعي رفضه حتى لا يسيء فهمها، وبلغ أمد رفضها له حداً دفع عزيزة إِلى أن تلومها:

ـ سبحان الله. . . كأنك تحيين بلا قلب.

وابتسمت . .

غذت كلمات عزيزة غرورها، أحست أنّها تقف على قمة عالية دون الجميع، ويومها بالضبط، قرّرت أن تعطيه الأمل.

توقفت فجأة، التفتت إليه، فوجىء بالتفاتتها فتسمّر في مكانه، حاولت أن تدفع إليه بابتسامة، فشلت.

ـ نعم. . لم تلاحقني؟!

كان موقفه مضحكاً، ارتجف، أغمض عينيه، حاول أن يتكلم فتصلّبت شفتاه، سمعت صوت أنفاسه، كان السؤال قاسياً غير متوقع، انتهت اللحظات المقررة للحديث معه، استدارت ومشت، ظل واقفاً في مكانه، اليوم الذي تلا يوم اللقاء كان يوماً قاسياً، توقعت قدومه ولكنه لم يحضر، خافت أن يكون قد صدم بموقفها منه، تمنت لو لم تكلمه، لو لم تره، لو ألغي ذلك اليوم من أيام حياتها، لو اختصر من عمرها، ظلت شاردة طيلة يومها، عاتبتها المدرّسة أكثر من مرة:

ـ انتبهي يا سالمة. . . رجاء.

في المنزل أوقعت صحناً عندما كانت في المطبخ، غضبت أمّها للصوت الناجم عن وقوع الصحن الذي كاد أن يزعج أباها خلال نومه بعد الظهر.

لكنه عاد، عاد في اليوم الذي تلا غيابه عنها، وبدا يومها كئيباً شاحباً على غير عادته، وهزّتها تعاسته، وتألّمت لصدّها المبالغ فيه، وأحسّت بأنها تظلمه وتذلّه، وأنها تجني على عاطفة ربما تكون مفتاح سعادة أيّامها.

يومها كادت تبدأه بالحديث، تمنّت أن تبادله التحية، أن تقابل عيناها عينيه، أن تعطيه بصيصاً من رجاء حتى لا يغرق في قاع اليأس، حتى لا تفقده، ولكن الحياء منعها من أن تفعل.

تركته يبتعد على الرغم منها، أحسّت وكأن جزءاً منها ينفصل عنها، أحسّت بأنها ربما انتهت، ربما أساءت وضع الخاتمة، ولكنه كان يعود دائماً، يعود مع صباح كل يوم وفي عينيه إلحاح، يشيِّعها بنظراته الكسيرة وكأنّه يعاند اليأس ويرفض الانصياع له، يكتفي بذلك اللقاء العابر الذي لا يتعدّى اللحظات القليلة التي تستهلكها بضع خطوات.

امتدت يده مرتعشة برسالته الأولى، والتقطت أصابعه في لهفة خطابها الأوّل، وصار للأيام طعم آخر وللقاءات لون ثان، وخفق قلبها بالحبّ الحقيقي الذي حلمت به منذ أول خطوة خطاها محمود من خلفها.

ويا حبيبي..

إذا قدِّر لحبّنا هذا أن يعيش، أن يرى النور ويصير واقعاً، إذا

قدّر لحبّنا يا حبيبي أن يقيم عشّاً صغيراً في طرف المدينة، فستجد فيّ الزوجة الوفية المخلصة لبيتها وصغارها، الزوجة التي تعرف كيف تدير مملكتها الصغيرة وتحوّلها إلى جنّة خضراء.

ويا حبيبتي..

تعلمين أنني أعيش لهذا الأمل، وأنني عشت له رغم كل ما عانيته في سبيل إقناعك، وتعرفين أنني لم أستسلم لليأس أبداً، لذا، فإننا سنصيِّر حبنا واقعاً وسنقيم بيتاً صغيراً في طرف المدينة، وستجدين فيّ الزوج الوفي المخلص في جنتك الخضراء...

وابتسمت الأيام لها كما لم تبتسم، وشبّعت كلماته العذبة خيالها الشاب بأحلام عديدة، تكاد من فرط إدمانها تراها واقعاً يسلم بشرعيته ووجوده جميع من حولها.

ـ بيب... بيب..

وأفاقت، وأدارت رأسها مفزوعة وكأنّها لم تكن تنتظر منه أن يأتي، ولكنه أتى بالفعل، كان يبدو منسجماً وسيارته الصغيرة المتمهّلة في سيرها موازيةً للرصيف. وخافت أن ينتبه المارة فأشاحت له بيدها راجية إياه أن ينصرف.

وازدحمت الصور في رأسها وجلجلت الأصوات معلنة عن استنكارها، وجه أسمر غير حليق بعينين قاسيتين لم تستضيفا حناناً في حياتهما أبداً:

ـ مكان البنت البيت. . . البنت تحفظ القرآن وقواعد الإسلام وتنتظر نصيبها في البيت إِلى جانب أمها تساعدها. . الخروج ممنوع.

ووجه شاب أسمر أنيق متألّق بعينين مرحتين، يرد بعد فترة صمت بكلمات ذكية:

ـ لا يا والدي. . إنني لا أوافقك. . . لقد تغيّر كل شيء. . كل البنات يذهبن إِلى المدارس الآن فلم نحرم سالمة بالذات؟!. . إنها أختي وأنا أعرفها. . إن معدننا أصيل وستكون عند حسن ظنّنا بها. . ثم إننا جميعاً من خلفها. .

هرج ومرج ولغط وضجيج يأتي من «المربوعة»، صوت اصطدام الشاي المنساب من الإناء إِلى قاع الكوب يختلط بصوت نافذ يحتج:

ـ كل الفتيات سواسية، ولكل فتاة صديق، والبراعة تكمن في أن تستحوذ على قلب عذراء يا غبي!.

المصباح المثبت إِلى جدار في وسط الحوش مطفأ، وسالمة على رؤوس أصابعها في المطبخ تفتح الثلاجة لتتناول زجاجة ماء بارد، وصوت أبيها يأتي هامساً في حديثه إِلى أمّها:

ـ والله البنت كبرت وأخاف أن تفضحني ذات يوم. . .

أتعرفين ماذا حدث مع ابنة الحاج إبراهيم.. إنها..

ـ إنني أنا التي ربيتها، غربلتها دقيقاً وعجنتها خبزاً وسويتها بالطريقة التي أتمنّى، فلا تخف.. ثم إن سالمة درويشة وليست كالأخريات...

ومحمود..

«سأصنع ما لم يصنعه رجل، سأفرش طريقك إِلى عشّنا السعيد بالورود والرياحين، ستطغى فرحتي على وجودي يوم ألتقي بك لنبدأ رحلتنا السعيدة، حتى أنّني سأكون موجوداً في فرحتي بك، فرحتي بك فقط، فاعطيني من مشاعرك قدراً ولو قليلاً من الكثير الذي أعطيك.

إنني أحبك يا سالمة.. أحبّك حباً لا يمكن أن يتصوّره عقل، ولا أن أوصف من جرّائه بغير الجنون، فاحذري أن تتركيني يا سالمة، إحذري أن تجني على إنسان لم يفعل أكثر من أنّه أحبّك فأخلص».

ـ بيب.. بيب..

وأفاقت إِلى أنّه قد عاد من جديد فتضاعفت خفقات قلبها، ومسحت الشارع الطويل، ووقفت ثم عبرته وسارت على الرصيف الآخر نصف واعية، وتملكها إحساس بأنها تقوم بلعبة خطرة وأنّها

لو وفت بوعدها له وحدث أن رآها أبوها أو أخوها أو أي إنسان يعرفها، فإن كارثة ستقع لا محالة.

ولكن.. ولكن.. اليوم آخر أيام خروجها، لن تراه بعد اليوم أبداً، سيُقذف بها خلف الجدران بمجرد إحضارها شهادتها من المدرسة، لن تراه عيناها طيلة ثلاثة أشهر مملة حارة، سيُجنَى على الحب الذي عاش عارماً في صدرها ثمانية أشهر كاملة، سينتهي إن لم تقابله، سيظن أنها تخلّت عنه، أنها كانت تتخذه مطية لإضاعة الوقت، ستحطم القلب الذي أحبّها، أعطاها الأمل بعد أيام الخواء المضنية، ثم، عمّ ستحدث جاراتها الشابات في أوقات الفراغ الطويلة المقبلة؟.. ألف سبب يدعوها لأنْ تقابله، تحدّثه، تتفق معه، ثم إنها لا تأتي عيباً، لا تفعل سوى ما تفعله الأخريات، ومحمود يستأهل كل الثقة، ولا يمكن أن يسيء إليها متى انفرد بها، سيرعاها بعقله قبل حبّه، لن يخدش حياءها بكلمة، سيكون دائماً كما تراه في أحلامها، رقيقاً عذباً مهذباً.

وعرجت إِلى شارع فرعي، وأسلمت نفسها لقدرها وللظروف، وسارت في خطوات متعثرة وكأنّها مرغمة على أن تعبر الشارع، واستراحت إِلى عدم وجود من يراقبها، وتمنّت أن يقدم محمود في طرفة عين وليحدث ما يحدث، فالحب تضحية، الحب عطاء، عطاء لا ينتهي، وإِلاَّ فما الفرق بينها وبين غيرها من

الفتيات بالنسبة له إن لم تلتق به، لا بد من أن تؤكّد حبها له ليكون له منطلقاً يندفع منه إلى سماء أحلامها، وطرق الصوت أذنيها:

ـ بيب.. بيب.. بيب..

وعاودها الاطمئنان إلى عدم وجود أحد فأشارت له بطرف يدها أن أقدم، وسمعت صوت طحن عجلات السيارة لحبيبات التراب، والتهب وجهها بالدماء الحارة، وعاودتها خفقاتها السريعة المتوالية، وعالجت خصلة شعرها المتمردة في عصبية، واصطدمت عيناها بوجه شاب أسمر أنيق متألّق بعينين مرحتين:

ـ مبروك.. مبروك يا سالمة.

تسمرت في مكانها، اجتازتها السيارة الصغيرة، بهتت، أصيبت بخرس مفاجىء، كساها العرق فجأة، جاءها الصوت من جديد مستبشراً:

ـ كنت أعرف أنك ستنجحين.. ولكني لم أتمالك نفسي.. إن نجاحك يا أختي نجاح لي وتعزيز لرأيي فيك، ثم إنني رأيت أن أسبقك إلى استلام الشهادة حتى أتدبّر أمر نقل الخبر السيء إليك وإلى والدينا في حالة رسوبك، ولكنك ها أنت عند حسن الظن وهأنذا أجد ما أدافع به عنك، ستواصلين دراستك يا سالمة وتأكدي أن كل نجاح تحققينه سيدعم وجه نظري..

ورغم كلماته المبتهجة التي كانت تمليها فرحته الحقيقية بنجاحها، ظلّت على حالها دون أن تنبس بكلمة، ودون أن تأتي حركة سوى جرّها قدميها في إعياء إِلى جواره في طريقهما إِلى البيت.

الإختيار

الإختيار

قرّروا أنه كبر، أنه صار رجلاً بكتفين أعرض من كتفي أبيه، وقرّروا أنه من العار أن يظل على حاله بلا عمل، وقرّروا أن يتوقف عن الدراسة التي لم يفلح فيها، وأن يشق الطريق الذي شقّه كل أولاد الحي، فيبني حياته، ويكمل نصف دينه.

وأحسّ بأنه كبر، ورأى كتفيه أعرض من كتفي أبيه، وتألم لبطالته وتقتير أبيه عليه فطلّق الدراسة ثلاثاً، وشرع يبحث عن عمل إلى أن عثر على وظيفة كتابية متواضعة في إحدى المؤسسات، وتلذذ بوجود بضعة دنانير في جيبه، وبدأ يحلم بإكمال نصف دينه.

وجاءته أمّه تسأله عن زوجة ينتقيها من بين بنات الحي، وشرع يحلم بينما كان يقف في وسط «المربوعة» منتصباً على قدميه، ويتصوّر الزوجة الجميلة التي تستحي من ظلّها إذا لاحقها في يوم مشمس، لكنها لا تستحي من زوجها حتى أنّها تستطيع أن

تقف في حضرته وتتحدّث إليه في فستان عصري قصير، الزوجة ذات العينين السوداوين اللّتين يستطيع أن يسبح فيهما بعينيه دون كلل، بينما هي تسبل جفنيها في حياء إذا التقيا بنظرات غريب، الزوجة ذات الأصل العريق، والأخلاق الرفيعة والقلب الكبير.

وتأوّه دون أن ينطق بكلمة، وأمّه تقف عاجزة عن قراءة أفكاره، مرتبكة في انتظار كلمة واحدة منه، وأبوه يتكيء على مخدة فوق حصيرة في وسط الحوش منتظراً الكلمة ذاتها. . .

ـ أختار زوجة؟! . . . الخير فيما اختاره الله ووافقتم عليه.

وابتسمت أمّه وعادت تلحّ عليه أن يعيّن فتاة بالذات، فتاة ربما تكون قد أعجبته، وربما يكون قد رغب أن تكون زوجته لكن الحياء يمنعه من الإفصاح عنها، إلاَّ أنه ظل على صمته لا ينطق، وأمّه تقف عاجزة عن فهمه، وأبوه في وسط الحوش ينتظر.

وخالها تقف مبتسمة في حياء، وبادلها الابتسامة بابتسامة أعرض، وبادلته أمه الابتسامة بابتسامة أم حنون، وسمعته ينطق اسمها فماتت ابتسامتها على شفتيها ورحلت الفتاة من خياله، ودق قلبه بعنف وأحسّ بأن كارثة ما ستقع.

قالت أمّه:

ـ أنت تعرف أنّها من أسرة غنية، تعرف أيضاً أنّها حصلت

على الشهادة التوجيهية هذا العام، وهذا يعني يا ولدي أن مهرها لن يقل عن ألف دينار، أضف إليه التوابع فيرتفع المبلغ إِلى ألفي دينار... إذا وافق أهلها...

وازدرد ريقه، وتألّم لواقعه، لكن رأى أن يجير أمّه من معاناة الألم فابتسم:

ـ كلهن نساء... لا فرق بين هذه وتلك... هذه التي اخترتها إنما اخترتها لكي أمزح معك... ألم أقل لك إن الخير فيما اختاره الله ووافقتم عليه أنتم؟!...

لكن الأم صممت على أن تكون لولدها فرصة الاختيار، وحتى لا يشطح بعيداً، قرّرت أن تتحدّث إليه بإفاضة، وشرعت تتحدّث في الحال:

ـ بنت سيدك محمود، سمحة، والله لو رأيتها لاعتقدت أنها نصرانية، عيون خضراء، شعر أشقر طويل، طول وعرض وشباب، لم تر الشارع منذ عشر سنوات، أي منذ كانت في السابعة، حقيقة أن أباها يعمل مباشراً، وأن أسرتها فقيرة، وأنها أمية مثلي، لكن قل لي، ألم أصنع منك رجلاً كالجمل ما شاء الله؟.. هذه يا ولدي لن يتجاوز مهرها المائة دينار.. وأعتقد أنها تناسبك....

ـ بنت الحاج علي... ليست أمية يا ولدي، انتظمت في الدراسة حتى الثالثة الابتدائية، بنت سمحة ومؤدّبة تستحي من

ظلها، تلبس الملابس الإفرنجية وكأنّها واحدة منهن، لا بأس بها يا ولدي، بنت ناس، وسيدك الحاج علي رجل طيب، هذه... مهرها لن يتجاوز المائة والخمسين ديناراً... هي أيضاً يمكن أن تكون من نصيبك... ألم ترها؟

ورأى أن يساهم في الحديث، قال:

ـ... وزهرة...

وكأنما لدغ الاسم العجوز فأجابت على الفور:

ـ معاذ الله يا ولدي.. معاذ الله... زهرة قليلة حياء... طول اليوم وحقيبتها في يدها تختال بفستانها القصير في سوق الظلام وشارع عمر المختار، تزاحم الرجال كالرجال دون أن تستحي، لا والله يا ولدي... ثم... ألم تسمع ما يروى عنها من حكايات؟!...

وابتسم.. وصمتت العجوز قليلاً ثم أضافت:

ـ والله زهرة هذه... لو ربطت في يدي لقطعت يدي، ثم إن أهلها رغم فقرهم ينظرون إِلى فوق، صدّقني يا ولدي، أنّه رغم كل ما يقال عن زهرة، فأهلها يعتقدون أنّها ستفوز بمهر فتاة جامعية شريفة رغم أن هذه «الصائعة» سقطت في الشهادة الابتدائية مرّتين...

وجاء صوت أبيه من وسط الحوش ملحاحاً يدعو أمّه:

ـ أسمعي... تعالي...

وأجابته العجوز على الفور:

ـ الصبر... إصبر...

وعادت تستحضر بقية العروض، وأسعفها عرض مغر ربما فضلته على بقية العروض:

ـ بنت سيدك سليمان... زينب... لا شك أنك تراها بين الحين والآخر... ما رأيك فيها؟!... ألا ترى أنّها جميلة ومؤدبة وبنت ناس، يا سلام يا ولدي، جاءهم كثير من الخطاب فرفضوهم لأن أبا البنت يبحث عن رجل ولا يبحث عن ثروة، والله يا ولدي لو قصدناهم لما قصّروا... كل رجل عاقل لا شك أنه يتمناك لابنته.

وقاطعها:

ـ وبكم هذه؟

ولم تفهم:

ـ نعم؟؟

أوضح:

ـ مهرها... كم مهرها؟

وحدقت العجوز في سقف الغرفة ثم عادت بعينيها إِلى ابنها:

ـ زينب حصلت على الشهادة الابتدائية... مهرها... قل يا ولدي، مائتي دينار، ربما أكثر، لكننا لن ندفع أكثر من هذا المبلغ لأننا لا نستطيع...

وعاد أبوه ينادي أمّه، استأذنت العجوز على أن تعود، وبقي في «المربوعة» وحيداً، وحلّ في عينيه كثير من البنات، وارتاحت عيناه لواحدة منهنّ فأبقاها في عينيه إِلى أن عادت أمّه، همس:

ـ نورية... نورية بنت سيدي عثمان.. ما رأيك فيها؟

وتأوّهت أمّه، وصمتت قليلاً، وعاد يسألها فأجابته:

ـ هذه يا ولدي حصلت على الشهادة الإعدادية، أبوها يطمح في أن تعمل مدّرسة، مهر هذه لن يقل عن الخمسمائة دينار وأضف دائماً التوابع، ونحن يا ولدي فقراء، أنت أدرى بحالنا وأعلم من غيرك، لكننا نبحث عن الفتاة التي تريحك ولو على حساب ميزانيتنا ونحن في حيرة معك، ونحن...

وصمتت فجأة كأنما ندمت على كشف أوراقها، وأطبق الصمت على «المربوعة» تماماً، ومضت دقائق قليلة في بطء ورأت الأم أن تنتهي إِلى قرار:

ـ ألم تقرّر شيئاً؟

ولم يجبها بكلمة، ظل يحدّق في الأرض بعينين مشرعتين، وأعادت الأم سؤالها: لكنه لم يجب، وشاءت أن تقذف إليه بآخر العروض إغراء:

ـ بنت الجيران الجدد، طول وعرض وعيون، شباب ما شاء الله، سمحة ومؤدّبة وبنت ناس، منقولة إِلى السنة الثانية الإعدادية لكنني سمعت أن أخاها منعها من إتمام دراستها... ما رأيك لو تقدّمنا نطلبها لك؟؟

ورفع رأسه في غضب:

ـ وبكم هذه؟؟

وأجابته أمّه:

ـ تعني المهر... سأقنع أباك أن يدفع لهم مائتين وخمسين ديناراً على أن يخفّفوا علينا بقية الشروط، أنت تعرف تكاليف التوابع... آه يا ولدي... إن...

وقاطعها في غضب:

ـ اسمعيني... لن أشتري ولا واحدة منهن... سأظل عزباً إِلى أن أتمكّن من شراء البضاعة التي تروقني، أمّا الآن فلن أشتري... لا...

وتركته أمّه إِلى أبيه تشكوه، ولم يفلحا في تقرير شيء.

الخفقة البكر

الخفقة البكر

انتهت السهرة وتفرّق رفاق الليل، وتحرّك أحمد يجر جسده النحيل في خطوات بطيئة إلى زنزانته الباردة، وكلمات أصدقائه تدقّ رأسه محدثة أصداء بالغة القسوة.

إنهم يعيشون الحياة بكل بهجتها، بكل آمالها، بكل شبابها، بكل ما فيها من سعادة ومسرّات، فحياتهم فرحة متّصلة، وتطلعات بريئة جميلة، فالواحد منهم استطاع أن يكتشف بئر حنان لا ينضب في صحراء الحياة القاحلة، وصار يرتوي من فيضه كل لحظة لتتدفّق قطرات الحياة في دمه مع عروقه وتدفعه إلى الأمام أبداً.

ـ «رأيتها صباح اليوم... كانت تتمخطر بين رفيقاتها وكأنّها ملكة... التقت عيناي بعينيها... رباه... إنكم لا تعرفون ماذا يحدث عندما تلتقي الأعين... عيناها قالت إنها تحبّني وتتمنّاني رفيقاً لحياتها وأباً لأطفالها... ارتعشت يداها حتى كادت أن تسقط الحقيبة... تحركت بسرعة حتى لا أحرجها... آه يا

رفاقي... أنتم لا تعرفون الخفقة الأولى... الخفقة البكر...».

كانت هذه هي كلمات سعيد، وكانت كل حكاياتهم تدور حول نفس الشيء الذي لم يجربه أحمد، ذلك الدفق الرائع من فيض الحنان البكر البريء... نظرة... كلمة... تحية... إشارة... ابتسامة، تلك الهبات الرائعة التي تخصّ بها فتاة رجلاً بعينه دون سواه.

وأدار أحمد المفتاح في الباب فأحدث صوتاً جعله السكون مسموعاً، وتخطّى العتبة فجاءه صوت عجوز كان يتوقّع أن يسمعه:

ـ لم تأخّرت يا أحمد؟ إن عملية إيقاظك صباح كل يوم تتطلّب جهداً كبيراً، فلم لا تنام مبكراً كغيرك من عباد الله؟ إن رفاقك رفاق سوء دون شك وسيقودونك إِلى مصيبة محقّقة، وأنت يا أحمد...

وكان أحمد يتمتم بكلمات غير مفهومة بين كل جملة وأخرى فيما كان يقفل الباب، لأنه حفظ عظات أبيه جميعها وصار في إمكانه أن يلقيها بطريقة أفضل مما يفعل أبوه، ودلف إِلى زنزانته وأضاء المصباح ومسح السقف والجدران وكل الموجودات بعينيه ثم أغمضهما.. لا جديد... كل الأشياء الكئيبة في أمكنتها، السرير بملاءته البيضاء المتسخة، و«خزانة الملابس» بمرآتها

المشروخة والكرسي العجوز الأعرج، والنور الأصفر الكالح، ورائحة الهواء المخزون، والغبار الذي يزيف ألوان الأشياء ويشبع هواء الغرفة بذرّاته المتناهية الصغر مع كل حركة، كل تلك الأشياء القبيحة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل أبداً، تتحدّاه في خبث وتجعله يسأم كل شيء.

واستلقى على السرير وقذف بنعليه في لا مبالاة بعد أن برّر عدم جدوى ارتدائه لمنامته بعدم أهلية ملابسه التي يرتديها لحق الحفاظ عليها، فهي رخيصة لا تستأهل المكوى ولا تحتفظ بأثره لأكثر من سويعات قليلة، ولذا فلا ضرر ينجم عن النوم بها.

وأحسّ بأنه يخادع نفسه وأنه يتذرّع بأسباب واهية ليبرّر كسله فابتسم، ولمعت فجأة صورة سعيد يبتسم مبتهجاً... «آه يا رفاقي... أنتم لا تعرفون روعة الخفقة الأولى... الخفقة البكر» وتلاشت الابتسامة وزحف التجهم على وجه أحمد من جديد حتى كساه، وأحسّ بأنّه يختنق، خمس وعشرون سنة قاحلة، خمس وعشرون سنة لم يسمع خلالها كلمة حنان واحدة، ولم تعتر ذاته تلك الارتعاشات الودودة الشابة، لم يخفق قلبه بحب، ولم يحس في أي يوم من أيام حياته بقلب يخفق لأجله... والرفاق يا للأغبياء... يظنون به الظنون ويسمونه «الصندوق المقفل»، بل ويمتنعون أحياناً عن الحديث في وجوده

لاعتقادهم بأنه يخفي عنهم مكنوناته وأنه يتسلّى بأحاديثهم.

وظلت الكلمات تدق رأسه:

ـ صندوق مقفل... صندوق مقفل...

ـ أيها الأصدقاء... حقّاً إنني كذلك ولكنني صندوق مقفل على خواء... على لا شيء... صندوق يملؤه الفراغ، ولذا فإنّه مهما طرقته كلماتكم فلن تتردد إِلاَّ نفس الأصداء، ولن تتبدّل أصداء طرقاتكم إِلاَّ إذا تبدّل محتوى الصندوق.

واحتجّ جفناه، واعترضت مفاصله جميعها على ما اعتراه من إرهاق، صوّر له إعياؤه أنه لن يقوى على الحركة أبداً وأنه سيظل طريح فراشه حتى يومه الأخير، وصرف أفكاره المزعجة بأن حرّك ساقيه ومدّ يده إِلى مجلة كانت قد وقعت من فوق الكرسي اليتيم في غرفته وقرّبها من عينيه، وظل يتطلع إِلى الصور دون أن يميّزها، وكاد أن يرمي بالمجلة إِلى سابق موقعها ولكنَّ عينين سوداوين تبتسمان شدّتاه، فنهض وأمسك بالمجلة بكلتا يديه، وعاد يدقق النظر في الوجه الصغير الودود والشعر الأسود المتهدل على الكتفين، والبراءة والوداعة اللتين تكاد تطفح بهما معالم الوجه.

إنها هي.. خيرية... كيف لم أتنبه؟!... إنها تبدو أكبر مما هي عليه... أو لعلّني لم أنتبه إِلى أنّها كذلك، إنّها هي، تلك التي تنتظر رفيقتها صبيحة كل يوم على عتبة دارها.

وأعاد رأسه إِلى المخدة، وبدأ يبذل جهداً ليتذكّر: نعم. . . صبيحة كل يوم في نفس المكان. . . لم يحدث أن تخلّفت عن لقائها يوماً، ولكني لم أكن أراها كذلك، كانت تبدو أصغر بكثير، ولكن من يدري. . . ربما اعتقدت الصغيرة أنني أتعمّد لقاءها وأنني أهاب الاقتراب منها والتحدّث إليها، ليتني أعرف حقيقة ما نسجه خيالها حولي من صور، إنها جديرة بأن تحب وبأن تكون محطتي التي تغذيني بأكسير الحياة، ولا أظنّها ستمتنع لأنه لا يمكن لمثل هذه البراءة والوداعة أن ترفض انتشال إنسان من درب الجنون.

ووخزته فكرة فقفز من فوق السرير إِلى وسط الغرفة، وقد ألغت الفرحة إنهاكه وإرهاقه، ونشطت أصابعه في البحث عن أوراق بيضاء وقلم أحمر، واستعدّ ليكتب خطابه الأوّل، وضاعت الكلمات، وأحسّ بأن رأسه يحتوي على مجموعة هائلة من التروس الصدئة المضربة عن الحركة، وكاد يبكي، ولمعت فكرة أن يستعين بكلمات الأصدقاء في كتابة سطوره، وكادت يده أن تتحرّك على الورق، ولكنه رفض الفكرة، فلا زيف في الحب، فإمّا أن تتحدّث مشاعره وتسكب لذيذ الكلام وروائعه وإِلاّ فليمتنع ويصبر.

ووضع القلم فوق الوريقات القليلة، ودغدغ شيء متناهي الدقة داخلَه، وعاد يحاور نفسه، فما معنى أن يمتنع عن نقل

كلمات الأصدقاء إليها باسمه؟ إنه لا يريد أن يخدعها، يريد لعاطفته تجاهها أن تعبّر لها عن حقيقته، وعاد ذاك الشيء يدغدغه، وشرع يشدّه إليها وبدأت علاقة ما تتفاعل بداخله.

«حبيبتي..

واغفري لي مناداتي لك بهذا اللفظ لأنني لم أتبيّن حقيقة مشاعرك بعد، ولكني أرجو أن لا تحرميني من بهجة ترديده في خلوتي، لأنه الأمل الذي عشت له عمراً طويلاً.

إنني لا أعرف كيف أتحدّث إِلى الإناث لأنني لم أعرف منهن سوى أمي العجوز التي كثيراً ما صوّر لي وهمي أنّها رجل، أما غير أمّي.. صدّقيني.. فلا أعرف عن الإناث شيئاً حتى إنني كثيراً ما اعتقدت أن لهنّ لغة خاصة غير اللغة التي نتحدّثها، وأنهنّ يختلفن في كل شيء عنّا.. سامحيني.. لسذاجة تصوّري، ولكني فقط أردت أن تغفري لي أية هفوة قد تبدو مني في حديثي إليك.

إنني إنسان شقي عاش لسنوات طويلة في بحث مستميت عن كلمة حب، وكنت ألتقي بك صبيحة كل يوم صدفة ولم أكن أنتبه إِلى أنك الإنسانة التي عرفت أخيراً.. هل جرحتك كلماتي؟.. معذرة.. ولكنني ميال إِلى الصدق...

شدتني صورتك.. جعلتني أتألّم لكل لحظة أغفلتك خلالها فأنت وديعة بريئة ودودة، ولا أظنّك تبخلين علي بالمشاركة في

رحلة الحياة لما تبقّى لنا من أيّام، ولكنني أستحلفك أن تتوخي الصدق والأمانة في تقييم ما قد تحسّين به نحوي، حتى نبدأ رحلتنا السعيدة في قطار متين لا توقف انطلاقته عقبة على الإطلاق.. فهل أنتظر منك ردّاً؟»

أحمد

وأحسّ أنه أفرغ ما يعتمل في جوفه من كلمات، وأعاد قراءة الخطاب، واعترته نشوة الخفقة البكر وأيقن أنه بدأ يجد نفسه بالفعل، وطوى الوريقة وعاد إِلى السرير يسترخي، ولكنه انتبه إِلى أنه سيقابل خيرية صبيحة اليوم التالي، وأن اللقاء بالحبيبة يُلزم المرء أن يكون لائقاً ومقبولاً إن لم يكن أخاذاً رائعاً، فخلع ملابسه وارتدى منامته ثم جلس على الحصير ليفرد قميصه وسرواله ويكويهما، وليبحث عن خرقة يلمّع بها حذاءه، وجاءه صوت أبيه من الداخل:

ـ ألا يكفي سهرك خارج البيت إِلى ساعة متأخّرة يا أحمد؟ ألا تنام وتريحنا في ليلنا على الأقل؟

وتمتم أحمد بكلمات أراد بها أن يقول إنه سينام، وانتهى من تجهيز ملابسه، وقرّر أن يشتري بذلة أخرى جديدة حالما يقبض مرتبه، وتحرك في اتجاه زر مثبت إلى جانب الباب المغلق فضغطه بسبابته وسبح في ظلمة الغرفة إلى سريره.

الحياة جميلة بالفعل، وفي استطاعة الإنسان أن يفعل الكثير من الأشياء المبهجة لو تفتح على ما يحيط به من روائع الموجودات وصنع علاقة ودّية تغذّي عواطفه. . غداً سيلتقي بالوجه الصبوح ولكنّه لن يكون كسابق اللقاءات العابرة، سيكون لقاءً رائعاً مشحوناً بشتّى الانفعالات والأحاسيس الرقيقة. . خيرية تبدو من بعيد على عتبة بيتها متأبّطة حقيبتها المدرسية في انتظار رفيقتها، وأحمد في بداية الشارع الطويل يلوح متأنّقاً وقد أخفى الخطاب في جيب سرواله، وبخطوات واثقة ثابتة يسير في اتجاه حلمه الوحيد ليحقّق الحياة والأمل، ويجد نفسه على بعد خطوات قليلة منها فيلتفت إِلى الخلف للشارع في حركة سريعة تتخلّل خطواته البطيئة، ويقف قبالتها ويبتسم ويخرج وريقة ويناولها لخيرية في حياء جريء:

ـ سأنتظرك غداً. . شكراً. . إِلى اللقاء.

ويستغرق في نوم عميق.

❖ ❖ ❖

وينهض مفزوعاً وقد كشفت أشعة الشمس التي عبرت زجاج النافذة إِلى الغرفة مدى تعاسة الإنسان المعدم، ويتطلّع إِلى ساعة يده ويتأكّد له قيامه في الوقت المناسب، ويندفع خارج الغرفة فيغتسل ثم يعود فيرتدي ملابسه على عجل ليدلف إِلى السقيفة في اتجاه الباب.

ـ القهوة يا أحمد. .

ـ لا يا أمّي. . مستعجل. . صباح الخير.

واختلط آخر حرفين من تحيته بصوت الباب يقفل، وتوقف أحمد للحظة أمام الباب وكأنه نسي إِلى أين سيمضي، وتحرّك فيما امتدت يده تتحسّس الرسالة في رفق، وقابلته الوجوه العابسة التي تبدو وكأنّها تَمُنُّ على الدنيا بقيامها المبكر وسعيها إِلى العمل، فأعطاها من ابتساماته وتحياته الكثير، ولاح صديق من بعيد فاختفى أحمد في زقاق إِلى أن مضى صديقه وتلاشى خوفه من إفساد صديقه لخطته، ومشى في اتجاه الشارع الذي تقيم فيه خيرية، وما لبث أن وصله، ولاحت كما توقع على عتبة البيت محتضنة حقيبتها المدرسية فارتجف، وأحسّ بأن شيئاً معلقاً في داخله يقع، وبسخونة تتخلّل كل ذرة فيه، وكاد أن يعدل عن رأيه ويعود، ولكنه عاد فقرّر أن يسير في خطى طبيعية تماماً كما كان يفعل كل يوم، وتحركت قدماه مرغمة فيما انتبهت حواسه إِلى جميع ما يحدث حوله، من أصوات وحركات، وتضاعفت دقات قلبه وكاد يسمع نبضاته من خلال تدفق الدماء في عروقه، ووجد نفسه على بعد خطوات منها، ورأى أن يلتفت وينفذ خطته ولكنه خاف إن فعل أن تؤوَّل من قبل عابر خبيث، وألحّت عليه فكرة أن يسلّمها الرسالة بعد أن تكبّد ثمن المحاولة، وحتى لا يكون

احتراقه الذي شهدته لحظات توه احتراقاً مجانياً غير مثمر، وخاف مما سيلحق سلبيته من توابع الندم والعذاب والخيبة، وامتدت يده إلى جيبه وأخرج الوريقة بأصابع ترتعش ورماها بين قدميها وكأنّه يتخلّص من كل عذاباته، والتقت عيناه بعينيها فدفع بابتسامة متردّدة إلى صفحة وجهه ولكنها تلاشت قبل أن تبدو، وخطا إلى الأمام وكأنّه يعدو في اتجاه النجاة، وأحسّ مع كل خطوة يخطوها راحة تعيده إلى ذاته. وانتهى إلى آخر الشارع فاختفى واستند إلى جدار وقد شلّ تفكيره تماماً.

مضى من الوقت قليله وأحمد في وقفته لا يتحرّك، ولكنّه رأى أن يتأكد من وصول خطابه مهما دفع من أعصابه، فخطا خطوتين إلى أول الشارع ومسحه بعينيه وفرح لأنه لم ير خيرية، وسبقته قدماه في خطوات سريعة متفائلة، ووجد نفسه عند باب بيت خيرية فتوقف وبحث عن رسالته حيث رماها فلم يجدها، واعترته فرحة غامرة، وأحسّ بجسده النحيل خفيفاً مشحوناً بمشاعر متباينة، وارتخت عضلات وجهه التي ظلّت مشدودة منذ لاحت خيرية.. إنها الخفقة الأولى.. الخفقة البكر.. الحب الذي لم يعرفه طيلة سنواته القاحلة.

كان يمشي في خفّة، وأحلام لقاء صبيحة الغد السعيد تدغدغ مشاعره.. ستتغيّر أصداء الصندوق المقفل أيها الرفاق.. ستأتي

أصداؤه رنّانة مبتهجة متفائلة.. سأحدّثكم عن روعة الخفقة الأولى.. الخفقة البكر..

وسحقه صوت يقهقه قارئاً:

- حبيبتي..

واغفري لي مناداتي لك بهذا اللفظ.

ورنّت ضحكات شابة في أذنيه، وانتبه إِلى أنه سيجتاز بعد خطوة واحدة طالبين يسيران في ذات الاتجاه، وتسمرت عيناه على وريقته في يد أحدهما يقرؤها للآخر، وذهل، وتجمّدت أطرافه، واهتزّت الأشياء أمام عينيه، وما لبث أن تدارك الموقف، ففرّ إِلى حيثما اتّفق.

مريومة تغمز الحصان

مريومة تغمز الحصان

عيناها مشبعتان بالحبّ، عيناها مشبعتان بالدموع، عيناها مشبعتان بالتفاؤل، والمذياع يتحدّث عن نصف المجتمع المصاب بالشلل، وأصغر أطفال مريومة يشدّها من قفطانها، والّذي يكبره مباشرة يرمي بكوب زجاجي على الأرض فيكسره، وأصحاب دكاكين البقالة يصنعون كثيراً من القصص عن نسوة الحي، والسماء لا تمطر ذهباً، وأصغر أطفال مريومة يبحث بيديه النهمتين عن قطعة خبز في القفّة.

مريومة تفرد قامتها، وتمسح بسبابتها ما تبقّى من رشح الدمع في عينيها، فرفيق العمر مات، أبو الأولاد مات، رجل البيت مات، ومريومة تفرد قامتها وتطل على الدنيا بعينين من غير كحل، بعينين مشبعتين بالتفاؤل.

ـ يا خالتي الحاجّة.. عيناك على الأولاد..

ودقت أرض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل،

ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون، لكن مريومة بنت ناس، وأبو الأولاد مات فكل الرجال ماتوا، وأصغر الأطفال يبحث بيدين نهمتين عن قطعة خبز في القفّة.

وابتسم الرجل المنفوش ففضح أنيابه الصفراء، وحكّ رأسه، وبدا في هيئة الرجل الخدوم الطيّب، وفكّر ملياً ثم ولد فأراً:

ـ يا مريومة.. أنت بنت ناس.. لا يجب أن تعملي في وظيفة منظفة.. افتحي عينيك على الحياة وكوني شيئاً آخر أفضل..

ومريومة بنت ناس، وبنات الناس لا ترفع عينيها إِلى أعلى، وتمتمت الأرملة كأنما تخاطب ذاتها مجيبة في استحياء:

ـ يا سيدي المسؤول.. لا أستطيع أن أكون أفضل من منظفة.. أبي لم يدخلني مدرسة وأمّي لم تعلّمني غير الكنس..

قالت الأنياب الصفراء متودّدة:

ـ يا مريومة.. أنت تملكين الكثير من المؤهلات..

سألته:

ـ هل ستجد لي عملاً؟

ـ نعم.

ـ متى؟. عِدني..

ـ غداً.

ومضت مريومة تدق أرض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل، ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين، ولكن مريومة بنت ناس، والصغار في البيت ينتظرون، والطريق إِلى الصغار لا بدّ أن يكون مفروشاً بالإصرار.

ـ باركك الله يا خالتي الحاجّة.

ـ يا مريومة يا بنتي تزوّجي، فللأطفال رب يحميهم وأعمام يهتمّون بهم.

ذرفت مريومة ابتسامة:

ـ يا خالتي الحاجَّة.. أبو الأولاد مات.. فكل الرجال ماتوا.. أجل كل الرجال.. ودفعت كبير صغارها إِلى البقالة المجاورة وفي يدي الصغير دراهم قليلة، وفي عينيه شوق إِلى قطعة خبز وقرص جبن، وصاحب البقالة المجاورة قاعد على صندوق خشبي ينفث دخان لفافته ويتحدّث إِلى القعود في لغة العالِم:

ـ أبو الأولاد مات.. وأم الأولاد فجرت.. رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود والتراب، رأيتها في الشارع تمشي بين

الخيول والعيون والمراهقين والرجال، رأيتها تغمز بإحدى عينيها المكحولتين حصاناً. . والمرأة امرأة يا رجال. . أنتم تعرفون أن المرأة تحتاج رجلاً ونقوداً، فإن لم تجد ما تحتاجه في البيت مرقت إلى الشارع تبحث عنه، ثم إنني رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود والتراب تغمز بإحدى عينيها المكحولتين حصاناً.

وامتدّت يد أكبر الصغار بدراهمه القليلة وحدّق صاحب البقالة المجاورة في الدراهم، وهزّ رأسه مستنكراً، ثم انفجر ضاحكاً حتى دمعت عيناه اللتان سيأكلهما الدود والتراب، وهمس لأكبر الصغار بصوت عال:

ـ فلتعطنا أمّك مما أعطاها الله، ولتضف إلى دراهمك القليلة دراهم أخرى لأبيعك حاجتك من الخبز والجبن، فإن لم تكن لديكم نقود فلتغمز أمّك حصاناً آخر.

ومضى أكبر الصغار إلى مريومة التي كانت تنتظر فجر اليوم التالي في ظهر اليوم الأول، وجذب الصبر الفجر، ودقّت مريومة أرض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل، ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون، ومريومة بنت ناس، والله في الوجود، ونصف المجتمع لا يجب أن يبقى مشلولاً، وأبو الأولاد مات، أجل. . أبو الأولاد مات. .

ـ السماء لا تمطر ذهباً.

ـ نعم.

ـ ولا بد أن يفكّر الإنسان بعقل.

ـ نعم.

ـ وأنت تفكرين بعقل..

ـ نعم.

ـ تعالي إلي البيت عشية اليوم.. سأبحث معك طبيعة العمل الذي يمكن أن تؤديه.

ـ في البيت؟

ـ ولم لا؟

ودقّت أرض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل، ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون، ومضت في طريقها المفروش بالإصرار، فأصغر الأطفال لا شك يبحث بيدين نهمتين عن قطعة خبز في القفّة الفارغة..

ـ ثلاثة أرغفة وعلبة جبن.

ونفث صاحب دكان البقالة المجاورة دخان لفافته وحدّق في

عينيها غير المكحولتين، وصار حصاناً في التو، فتقيأ ابتسامة، وناولها الحصان الأرغفة والجبن، ورفض أن يفقدها دراهمها القليلة، فالله يحب المحسنين.

ـ فليباركك الرب يا خالتي الحاجَّة..

ـ فاجرة أنت. فاغربي عن وجهي..

ودقت اللعنة إصرارها طيلة عام، وأبو الأولاد مات، ومريومة لا تجيد الرؤية بعينين من غير كحل، وأكبر صغارها يحدّثها في طفولة:

ـ سيدي الحاج محمود اشترى دراجة لابنه صلاح، جئت كي ألعب مع صلاح فطردني وشتمني، قال إنني شحاذ، وكان قميصي الممزّق يشينني بين الصغار، وكان أخي سليم يمرح والذباب على العتبة بلا سروال، فركله محمود بحذائه الجديد بينما كان يحمل صينية الأرز المعتادة إليك، لم أستطع أن أنتقم لأخي، وكل الصغار يا أمّاه يحملون نقوداً وينعتونني بالشحاذ، فما معنى أن نعيش على الصدقات؟ أعطني نقوداً وقميصاً وسروالاً جديدين، واشتري لي دراجة وإلا فاحبسيني في البيت بعيداً عن كل الصغار.

ودقّت اللعنة إصرارها عاماً ثانياً، وأبو الأولاد مات، ومريومة لا تجيد الرؤية بعينين من غير كحل، والمذياع يتحدّث عن نصف المجتمع المصاب بالشلل، وأصغر الأطفال يشد مريومة من

قفطانها، والذي يكبره مباشرة يرمي بكوب زجاجي على الأرض فيكسره.

ودقّ باب البيت بعنف، ونفث صاحب دكان البقالة المجاورة دخان لفافته في وجه مريومة، وتقيأ ابتسامة، وذرفت ابتسامة، وصهل الحصان:

ـ عامان يا مريومة دمرني خلالهما الانتظار.. إدفعي ديونك وإلاَّ فإني سأرفع الأمر إلى القضاء.. ألا تفهمينني؟ إدفعي.

ـ ولكنني لا أملك نقوداً..

ـ لتكن مقايضة.. بضاعة ببضاعة..

وفهمت مريومة، ومات أبو الأولاد في العام الثاني ميتته الأخيرة، وحدقت مريومة في الفراغ بعينين مكحولتين، وغمزت الحصان، أجل غمزت الحصان.

اعترافات جريئة

اعترافات جريئة

إنني لا أذكر من طفولتي شيئاً يمكن أن أنطلق منه في رواية قصّتي، لكنني أذكر أنني كنت فتاة مدلّلة إذ كنت بكر أبويّ، كنت أول من قذف به الحظ من إخوتي إِلى هذه الحياة، وكان مجيئي إِلى الدنيا بعد طول انتظار وصبر وعلاج، لذا فلقد استقبلت استقبالاً رائعاً من قبل أبويّ، بالغا في تدليلي وتوفير طلباتي حتى علّماني كيف لا أحترم أحداً منهما، وكيف لا أحسب حساب أحد ولا أهتم بغضب أحد.

عندما بلغت السادسة لحقني الآخرون، أعني بقية السرب، إخوتي، جاءوا إِلى الدنيا الواحد تلو الآخر، وبدأ أبواي اللذان اشتاقا طيلة سنوات معاناتهما للأطفال ينصرفان عني إِلى إخوتي، وبدأت أحسّ بالخسارة التي لحقتني، بدأت أحسّ أنني أخسر حب أبوي بالتقسيط، أخسره مع كل صرخة ميلاد، مع كل دقيقة يفد فيها على الدنيا قادم صغير، وبدأ الفراغ يلفني، بدأت أحس كأنّني

أعيش في هذه الدنيا وحيدة، وسيطر علي الإحساس بالوحدة، نعم، كنت أحس وكأنني منبوذة، محرومة من دفق الحنان والحبّ الذي كان يغمرني، أحسست بكل هذا رغم أنني لم أكن أتعدّى السادسة من عمري، وبدأت أبادل أبوي نكراناً بنكران، وعدم اكتراث بعدم اكتراث، ووجدتني أكره أبوي وأكره إخوتي الصغار، وأميل إِلى الانطواء وحيدة في لعبي، في معيشتي داخل البيت وخارجه.

ومرّت السنوات ونفسي تأبى أن تميل إِلى غير الوحدة والرغبة الشديدة في معاكسة أي أمر يصدر إِليّ من أبي، من أمّي، من إخوتي الذكور الذين يصغرونني، والذين أراد لهم غرورهم الغبي أن يتحكّموا فيّ فقط لأنهم ذكور ولأنني أنثى. كنت أعاندهم، أكايدهم، أتشاجر معهم حتى أنني اضطررت في إحدى المرات إِلى ضرب أخي الذي يصغرني مباشرة، ضربته ضرباً مبرحاً حتى كدت أقضي عليه كعقاب له على رغبته الغبية في استعبادي، في إذلالي، رغم أني أكبره، رغم أني الأولى في حياة الأسرة.

من باب العناد ـ ليس إِلاَّ ـ واصلت دراستي، التحقت بالمدرسة الإعدادية في بنغازي، ورغم أن مواصلة دراستي جاءت نتاجاً لعنادي إِلاَّ أنني وجدت في المدرسة ما ينفس عن كبتي، ما يبدّد وحدتي ويسليني، ولذا وجدتني أتشبَّث بالدراسة مدفوعة

بقوة أكبر من عنادي، وتحصلت على الشهادة الإعدادية لأخرس الجميع، لأثبت لهم أنني أصنع شيئاً مجدياً بذهابي إلى المدرسة فأسكت آخر حجج المعارضة التي كانت تواجهني من أسرتي.

عندما حصلت على الإعدادية كان عمري خمسة عشر عاماً ولم أكن حتى ذلك الوقت أعرف شيئاً، كنت مغلقة تماماً عن الأفكار الجنسية رغم همسات وغمزات أمي المتواصلة ونصائحها لي بأن لا أقفز حتى لا أفقد بكارتي، ورغم حديث زميلاتي في الفصل عن الشبان والحب والحياة، ولم أكن في حقيقة الأمر أرغب في معرفة شيء عن عالم الجنس الغريب، ولكن فراغي دفعني إلى القراءة خلف الجدران في البيت. وجدت في الكتاب صديقاً عزيزاً، رفيقاً لا يملني ولا أملّه، أقضي في رحابه كل وقتي، لذا وجدتني أقرأ كثيراً، بدأت بقصص الأطفال فقرأتها جميعها رغم عدم تناسبها مع سنّي، نعم لم تكن تتناسب مع سنّي لأنني كنت أحسّ أنني كبيرة وأن الأفكار التي تعرضها قصص الأطفال ساذجة وغبية. بعدها، وفي السنة الأولى الثانوية، بدأت أتجه اتجاهاً جديداً في قراءاتي، بدأت أقرأ قصص الكبار، قرأت لنجيب محفوظ ولتوفيق الحكيم وليوسف السباعي ولمحمود تيمور ثم لإحسان عبد القدّوس.

عندما بدأت أقرأ لإحسان عبد القدوس كان عمري سبعة عشر

عاماً وكنت في السنة الثانية الثانوية، وكنت أحس بأنني كبرت بالفعل بدليل نظرات الرجال التي تخترقني فأتعثّر وتحمر وجنتاي وأحسّ بالدماء حارة في عروقي، وكانت كل قصص إحسان لا تدور إِلاَّ عن الحب والجنس، وكان كل أبطال إحسان يخرجون من غرفة مقفلة يتبادلون تحت سقفها الحب في بساطة، وكنت أحسّ أنني بطلة كل قصة أقرأها، كنت أحسّ وكأنني أعيش في القاهرة حيث أبطال إحسان الذين يبدع في تصويرهم.

وعرفت الجنس من خلال كتابات إحسان عن الحب، وأدركت الجنس من خلال التطورات التي طرأت على كل جزء في جسدي، وأحسست بالجنس من خلال الانفعالات الخفية التي يضج بها جسدي، فصرت لا أقرأ لغير إحسان ولا غير الجنس.

ودخلت السنة الثالثة الثانوية، وبدأت أحب، نعم أحب، أحب شخصاً وهمياً لا وجود له في الواقع، شاباً غير واضح الملامح، ولكنه رقيق مؤدّب، يحدّثني عن الحب في لغة الشعراء، يشبع أحاسيسي في غربتي بالحنان الذي حرمته، أجد في اللجوء إليه خلال ليلي الطويل كل سعادتي، أتنفّس أنفاسه وألقي في ابتسامته الودودة حياتي، وسخرت من نفسي، من خيالي الذي يعالج وحدتي باختلاق حبيب لا وجود له، ولكني لم أستطع أن

أتخلص من حبيبي المجهول الذي ظلّ ـ رغم كل عنادي ـ يلاحقني حيثما حللت ومهما حاولت أن انصرف بفكري عنه.

وحصلت على الشهادة الثانوية، وكان كل أملي أن أدخل الجامعة، ولكن مجلس العائلة اجتمع ذات ليلة وقرّر أنني كبرت، وأن خروجي إِلى الشارع حتى لو كان بقصد الدرس والتحصيل يشكّل خطراً يجدر بالعائلة أن تتجنّبه، فكيف يمكن أن أقعد إِلى جانب الرجال في مدرجات الجامعة دون أن يحدث ما لا تحمد عقباه؟!

وحاولت أن أقنع المجلس بأنهم يحكمون علي بالإعدام، وأنه يجب أن أنهي دراستي التي قطعت فيها شوطاً كبيراً. وكنت في حقيقة الأمر متحمّسة لرغبتي في إكمال دراستي كي أوفق في الحصول على حبيبي الذي صنعه خيالي في دنيا الواقع، وكي أوفق في الحصول على شهادة تكسبني صفة خاصة دون بنات شارعنا، ولكنني رفضت ككل، لم أسمع على الإطلاق، قوبلت كلماتي بأمر غير قابل للنقاش، أمر يقضي بحرماني من إكمال دراستي حتى لو استدعى الأمر استعمال القوّة، ولجأت إِلى غرفتي أبكي، أنزف دموعي على مخدتي، وكلمات أخي الذي يصغرني تأتيني ثائرة في غباء طفولي يكاد يدفع بي إِلى الجنون:

ـ لا يمكن.. لا يمكن أبداً أن أكون مضحكة بين الناس...

وأبي... وأمي... عمي... خالي... كلّهم يطيبون خاطره ويعدونه بأنني لن أرى النور أكثر مما رأيته، وكرهت الطفل الذي يريد أن يصنع من نفسه رجلاً على حسابي، كرهته أكثر مما كرهت الجميع، وعربد في داخلي عنادي، عنادي القديم، الذي لازمني طيلة سنوات عمري، وقرّرت أن أفرط فيما حاولوا أن يحفظوه بالقوّة.

بدأت أقف خلف الباب وأراقب ابن الجيران العبيط الذي ظل يغازلني منذ شهور، بدأت أمنحه الابتسامات وأغذّي مراهقته بالإشارات، وبدأ الشاب يتسمّر بالساعات الطويلة على عتبة الباب، متودداً، متقرّباً، ملوحاً بين الحين والآخر بقصاصة في يده، وكنت أكرهه، لم يكن حبيبي الذي حلمت به في خيالي، كان مجرد إنسان تافه يبحث عن امرأة، عن شيء يشغل به فراغه، عن قصة يرويها لأصدقائه. ولكنني كنت أريد أن أستعمله في حربي ضد أهلي، وكانت رغبتي عمياء في أن أفعل، كانت رغبتي مجنونة لا يحكمها عقل ولا منطق ولا يسيّرها سوى عنادي، عنادي على تحطيم أهلي.

وخططت للجريمة، وبدأت أنفّذها بمنتهى الثقة، أشرت له فجاءني مهرولاً، وسلمته بيد مرتعشة قصاصة صغيرة، وجاءت الساعة الثانية صباحاً، وتحركت من فوق فراشي الدافىء، تسللت

في خطوات بطيئة يقظة إلى الباب أفتحه لأعبر الأمتار القليلة إلى «مربوعته»؛ وعلى سريره المتواضع أعطيته نفسي، أعطيته جسدي، دون أن أحسّ به، وافترسني في بهيمية وانتهى مني في دقائق، ونهضت دون أن أتبادل معه كلمة واحدة، نهضت منهكة القوى، خائرة، متبلدة، دون أي إحساس بأي انتصار، وجررت خطاي إلى الشارع فالبيت أحمل عاري على أكتافي.

ليلتها لم أنم.. كان الألم يمزقني، ألم في جسدي، ألم في روحي، ألم من نوع جديد لم آلفه من قبل، وكدت أوقظ أمي لأبلغها بما حدث، ولكني استغنيت عن إبلاغها بالبكاء. بكاء مر لم ينته إلاَّ مع خيوط الفجر...

في الصباح اعتراني شعور عارم بالذنب، شعور بالجريمة، إحساس بالمهانة، إحساس بأنني لست سوى إحدى بطلات إحسان الساقطات، وكدت أجن. قررت أن أنتحر ولكنني كنت أجبن من أن أفعل، قرّرت أن أهرب ولكنني تصورت نفسي وضيعة على الأرصفة مطاردة من الأهل والشرطة والذئاب. واحترت، وأفقدتني حيرتي شخصيتي القوية، شخصيتي المتميّزة، شخصيتي العنيدة، وتبدل إحساسي تجاه أهلي، لم أعد أكرههم، لم أعد أمقتهم، بدأت أتملقهم وأحاول أن أكسبهم، وكسبتهم بالفعل. كسبت أمي، وأبلغتها بأنني فقدت بكارتي، أفهمتها أنني

نفزت من فوق الكرسي ففقدت بكارتي، وجنّ جنون أمي ثم جنون أبي، ولكنّهم اتَّصلوا بإمام المحلة وأبلغوه بما حدث لي، وحرّرت شهادة طبية بالواقعة اعتمدها الإمام الذي يشهد بأننا من أشرف أسر بنغازي، ووضعت الشهادة في المحكمة، وعدت أكره أهلي أكثر مما فعلت طيلة حياتي، وبدأت أتشفّى بانكسارهم والذلّ الذي يلوِّن تصرفاتهم ولكنني كنت أتعذّب. كان سبب عذابي إحساسي بتفاهة حياتي التي أعيشها.

وأبلغت بأنني سأزف إلى ابن عمي الذي يكبرني بعامين، ولم أتأثر بالبلاغ الرسمي رغم كل المظاهر التي أحاطتني في أعقابه، كنت أحسّ وكأنني مكلّفة بغسل صحون أو كي ملابس أو أي شيء من هذا القبيل... و... نقلت إلى حجرة صغيرة في بيت عمي. وقبلني ابن عمي كما أنا، قبلني بعاري البريئة منه بموجب وثيقة رسمية صنعتها الثقة، وبدأت أعيش حياة جديدة مع إنسان لا يعرف أكثر من رصف علب الطماطم على الأرفف، بدون شخصية تميّزني، بدون إحساس حقيقي بالحياة في كنف حبيبي الذي رسمته في خيالي، ولم يكن ابن عمّي يحس بشيء مما أحسّ به، كان بعيداً عنّي في عالمه بين أمّه وأبيه وإخوته يعيش حياته متندراً بما حدث في السوق من مواقف غبية لا تضحكني، وعدت إلى إحسان من جديد، عدت إلى وحدتي ألوك عذاباتي وأحزاني، أعطي ابن عمي ما يريده في ليله دون أن آخذ منه، لأغلق على

نفسي بابي، أمضغ أحزاني وألوك تعاستي وأخاف من نفسي على نفسي، أخاف أن أتعثّر فأقع، أقع ذات الوقعة التي وقعتها قبل زواجي. وأحتار، وأستغفر الله، وأستغفر نفسي وأستغفر أهلي وأذوب في الأحزان.

شحنات الكراهية

شحنات الكراهية لا ..

أنا طفل، وعمري عشر سنوات، وأكره أمّي كثيراً، وأتعذّب في كرهها لأنني لا أريد أن أكرهها، أريد أن أحبّها كما يحب الصغار أمّهاتهم، لكن نفسي لا تفيض بغير كراهيتها، أكرهها كما لم يكره طفل أمّه من قبل، وأنتم لا تهمّكم أحزاني، فأنتم لا تنفعلون بأحزان أحد حتى لو كان طفلاً مثلي، لأنكم لستم سوى تركة حربين بلّدت الأحداث الهائلة أحاسيسها وأفقدتها مشاعرها وجعلتها لا تختلف في شيء عن الجماد، ولكن معذرة أيّها الكبار لأنني سأتحدّث لنفسي تماماً كما يحدث معي كل ليلة، وسأبكي وأبكي وأشحن ذاتي بكراهية أمي وكل الكبار.

إنني طفل حقود، طفل يغلي داخله بكراهية هائلة مدمّرة، رغم أنني لم أكن كذلك منذ عام، فمنذ عام كنت طفلاً آخر، كنت طفلاً مدلّلاً، كنت وحيد أبوي وأميرهما الصغير الذي لا يُرفض له طلب ولا تُردّ له كلمة، كنت طفلاً سعيداً كغيري من

أطفال العالم السعداء بل وأوفرهم سعادة، وكنت أعيش وأبي وأمي في بيت صغير ولا ينبض قلبي بغير الحب، حب أمّي وأبي وحب بيتنا الصغير الواقع في آخر الزقاق، وحب كل قطعة أثاث في بيتنا، وحب أطفال شارعنا وعجائزه وشيوخه، وكل هؤلاء كانوا يحبونني حباً كبيراً، حتّى أواني المطبخ كانت تحبّني ولقد وقفت على هذا الحب بنفسي... لعلكم تتساءلون كيف؟!! سأحدّثكم..

أذكر أن أمّي كانت تضع قدراً نحاسياً ضخماً فوق خزانة المطبخ، وكنت أقف إلى جانب الخزانة أحادث أمّي التي كانت تقف في ركن المطبخ تعد الغداء، وظللت واقفاً لساعة ثم تحركت، تخطت قدماي عتبة المطبخ ووقع القدر على الأرض، أي حيث كنت أقف، وابتسمت للقدر الذي عرفته لتسع سنوات في بيتنا الحبيب، وشكرته من قلبي على تفاديه الوقوع على رأسي الصغير.

كنت لا أحتمل الابتعاد عن أبي ولو للحظة، فكنت أقضي العشية معه في ملاعب الكرة أو دور الخيالة أو سوق الظلام أو أحد المتنزهات أو كبرى المحلات التجارية، حيث أنتقي ما أريد من ملابس أو لعب دون اعتراض، ولا أنام إلاَّ ورأسي على ركبتيه، وكان هو الآخر لا يحتمل الابتعاد عني، وكان كلما عاد

من العمل ظهراً يسأل عني فأجري إليه وأعانق ركبتيه فيرفعني إلى صدره ويشبعني تقبيلاً وهدهدة ودغدغة، وكنت أعرف أن أبي يدلّلني، وكنت أجد في تدليله سعادتي التي لا تضارعها سعادة، وكان يصر على أن أتناول وجبتي معه حتى عندما يكون في بيتنا ضيوف، إذ كان يصر على أنني رجل وعلى أنه يجب أن أقعد مع الرجال وأتحدّث إليهم بل وأناقشهم في أقوالهم وآرائهم، وكانوا يجدونني مسلياً لأنني أتحدث مثلهم في كل شيء وبصورة لا توحي إلاَّ بأنني رجل مكتمل النمو رغم سنوات عمري القليلة. . . هكذا كنت أعيش حياتي، وهكذا كنت أحبّها.

وحدث ذات يوم أن عدت من المدرسة ووضعت حقيبتي في «المربوعة» وخلعت حذائي وجوربي، وأحصيت ما في جيبي من نقود صغيرة ثم خرجت فاغتسلت وعدت إلى «المربوعة» التي كنت أصرّ على الجلوس فيها كما يفعل شباب شارعنا الذين يكبرونني. وأذكر أنني قرّرت يومها أن أدعو أبي إلى دار الخيالة على حسابي لأنني كنت أملك قيمة تذكرتين، وفرحت كثيراً، ومنيت نفسي باللحظة التي يعود فيها أبي وأدعوه إلى مرافقتي وعلى حسابي، وانتظرت يومها طويلاً ولكن أبي لم يعد، وتجاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر وقرصني الجوع ويئست وجاءت أمي:

ـ أبوك تأخّر على غير عادته... أخرج وابحث عنه...

وكانت جزعة... نظراتها... كلماتها... ملامح وجهها... كل شيء فيها كان يرتجف، وخفت لأوّل مرة في حياتي، أحسست بوقوع كارثة ما، وضعت قدمي في حذائي وفتحت الباب واصطدمت عيناي بعيني سيدي سليمان، الذي كان سيطرق الباب، وغاص قلبي في قاع داخلي وسألني الرجل:

ـ أين أمّك؟

وذهلت لسؤاله السمج، واحترت، كيف يجرؤ على السؤال عن أمّي؟ وعقدت حاجبيَّ وقلت من خلال أنفاسي التي تلاحقت:

ـ ما لك وأمي؟... إنني رجل البيت فماذا تريد؟

ومسح براحته على رأسي ودفع إلي بابتسامة فزعة، وحوّلني عن الباب حتى كدت أفقد اتزاني، ومرق على الرغم منّي إِلى السقيفة حيث كانت أمّي، ودخلت من خلفه وكدت أطرده ولكن أمّي لم تخف وجهها عنه كما كانت تفعل مع بقية الرجال بل دعته إِلى «المربوعة» غير أن الرجل لم يستجب وقال في كلمات مقتضبة:

ـ لقد وقع حادث لسعيد... صدمته سيارة في طريق عودته من العمل.

وأصبت بخرس، لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة، تحركت

عيناي فالتقت بعيني أمّي، وجدتها متجمّدة خرساء هي الأخرى، أفقدها الخبر قدرتها على فعل أي شيء، واحتار الرجل أمام سلبيتنا فأضاف:

ـ جئت من المستشفى وسعيد في كامل وعيه... مجرد إصابة بسيطة.

وولولت أمّي واستدارت عائدة إلى وسط الحوش وظل الرجل واقفاً في السقيفة يحدّق في غباء وصرخت في وجهه غاضباً:

ـ أبي لا يمكن أن تصدمه سيارة... إنني أعرف مدى حرصه... إنك تكذب... أنت كاذب.

والتفت الرجل إليّ وصوّب عينيه المليئتين بالغضب والحنان وصرخ:

ـ أسكت... أسكت يا ولد!

ودخل خلف أمّي، التي علا نحيبها وبكاؤها لسوء حظّها، ومزقتني كلماته الجارحة رغم ادعائه الحنان، ودخلت من خلفه لأجرّه إلى الشارع وقد تملكتني كل غيرة أبي على أمّي، وقرّرت أن أطعنه بالسكين الحاد الذي تحتفظ به أمي في المطبخ إن رفض الانصياع لأمري، واقتربت منه أشده من سرواله، وطعنتني كلماته في سويدائي:

ـ البركة فيكم.. لقد توفي سعيد.... عوضكم الله فيه خيراً...

ولم أسمع بعدها سوى صرخة أمي الأولى، ولا أذكر سوى أنّني وقعت على الأرض وغبت عن وعيـي تماماً.

نهضت بعد ساعتين، وجدتني في غرفة مظلمة على سرير في بيت أحد جيراننا الطيبين، قفزت مفزوعاً وهرولت إلى بيتنا، وتخللت الهرج والمرج والوقوف والنساء المولولات والدقّات على الصناديق، ودفعت باب «المربوعة» فوجدته مقفلاً، دفعته بقوة فانفتح، ودلفت إلى وسط «المربوعة» فوجدت أبي مسجّى، ورفعت الغطاء الأبيض عن وجهه، وانهلت أقبل شفتيه وعينيه المقفلتين ووجهه الأصفر وأغرق كفنه في دموعي وأصرخ مستغيثاً:

ـ أبي لمن تركتني؟؟... لمن تركتني يا أبي؟؟... لم تموت؟ وما الحكمة في موتك؟؟ إنني أحبك... أحبك... فلمن تركتني؟... أبي... أبي...

وأبي لا يستجيب وقد تخلّى عني تماماً، مات كل شيء فيه حتى حبّه الكبير لي، أبي لم يعد أبي أبدا... مات وانتهى.

وضعت أصابعي على جفونه محاولاً أن أفتح عينيه، أن ألتقي به، فما كان يجب أن يرحل دون كلمة وداع واحدة، دون أن

يضمّني إِلى صدره ويمطرني تقبيلاً وعناقاً، وحبّاً، وسمعت وقع أقدام غاضبة، وقبضت يد حجرية على عنقي، وجرّني سيدي سليمان إِلى الشارع فيما اهتم بقية الرجال بإعادة أبي إِلى سابق وضعه، وانتزعت نفسي من يَدَيْ الرجل الكريه، وأصلحت من هيئتي، وجلست على أحد الكراسي المصفوفة إِلى الجدار، وجاءني الرجال يعزونني، واغرورقت عيناي بالدموع ولكن أبي كان يهمس لي في حب:

ـ كن رجلاً أمام الرجال... كن رجلاً وإِلاّ غضبت منك...

وانتهت ليالي العزاء الثلاثة، ومضى أسبوع وخلا البيت من جميع الذين شاركوننا أحزاننا، خلا من الجيران والأقارب والأصدقاء، وبقيت في البيت أنا وأمّي، وعذبتنا الليالي الموحشة في غياب أبي وافتقدنا ضحكاته وكلماته وحكاياته وحنوه وحدبه على إسعادنا. ولكنني كنت ألتقي به في كل ليلة، في نومي وفي يقظتي، وكان يداعبني ويلاعبني ولكنه كان يوصيني دائماً أن أكون رجلاً وأرعى أمّي وأحفظ اسمه وألاّ ألحق به سوى الرحمة، وكنت أعده من خلال دموعي بأنني في مستوى المسؤولية وأن عليه أن يطمئن في رقدته النهائية إِلى أنّه ترك من بعده رجلاً يرعى بيته تماماً كما لو كان موجوداً.

وعشنا في بيتنا الصغير الذي تولت الدولة دفع إيجاره، ودبرنا

حياتنا بالمرتب الذي صرت أتقاضاه من المصلحة التي أعطاها أبي كل أيامه. واعتدنا حياة الوحدة، وأحببت أمي أكثر مما كنت أفعل، أعطيتها كل ما في قلبي من حب وعوّضتها عن حب أبي لها بحبٍّ أكبر، واجتهدت في سبيل توفير جميع ما تحتاجه حتى أنها كثيراً ما كانت تتحدّث إِلى زائراتها عن قدرتي وحرصي على إسعادها، ولم يكن ينغص أيامي سوى زيارات سيدي سليمان لنا وادعائه قضاء مصالحنا باعتباري صغيراً، وكنت أرفضه، أرفضه بكل غيرة أبي، بكل رغبته في أن يظل بيتنا شريفاً متمسكاً بتقاليده الليبية العريقة، وكنت ألوم أمّي في أحيان كثيرة ولكنّها كانت تبرر تردّده بأن هناك من الأعمال ما لا أستطيع القيام به، وبأنّه حتى أقاربنا تخلّوا عنا وتركونا بعد وفاة أبي، ولم أقتنع طبعاً بالمبرّرات التي كانت تمضغها أمّي، ولكني كنت حريصاً على حسن علاقتي بها وعلى ألا أجرحها بكلمة.

ومضت ستة أشهر، وألقيت في جوفي أول بذرة كراهية حقيقية، وأعلنت لأمي عن سخطي، ورجوتها أن تقلع عن الزينة والخروج إِلى الأعراس والأفراح احتراماً لأبي الذي كان يحبّها كثيراً ويغار عليها من الطائر الذكر، ونبهتها إِلى أنّه لو كان أبي حياً لما سمح لها بهذا السلوك، ولكنها كانت لا تعير صرخاتي وملاحظاتي أي اهتمام.

ذات يوم وجدتها مرتدية أغلى ما لديها من ثياب وكل ما لديها من ذهب، وقد أجادت تلوين وجهها بالمساحيق والأصباغ فبدت جميلة كما لم تبد في أي يوم من أيام حياتها، وعرفت أنّها مدعوة إِلى فرح ووخزتها بملاحظة قاسية:

ـ إِلى بيت العريس رغماً عنك.

كنت أشير إِلى مبالغتها في الزينة واللّباس، وجاءتني كلماتها فكانت إجابة شافية لكل ظنوني وهواجسي:

ـ تأخذ السوء... بم تختلف عني أجمل عروس في العالم؟ إنني عروس أنا الأخرى...

ودفعت بابتسامة متوجسة، وحالت الدموع بيني وبين وجه أمي الذي خلته ملطخاً بدماء أبي، وضربت أول بذرة كراهية حقيقية جذورها في أعماقي، وانسحبت إِلى «المربوعة» أجرّ أحزاني وارتميت على السرير وانتحبت كثيراً وتمنيت أن يعود أبي إِلى مملكته ويعفيني من هذه الهموم، وجاءني أبي بوجهه السمح الحبيب وأخفيت رأسي في صدره وبكيت كثيراً حتى خلت نفسي أنتهي دموعاً، وظل أبي يشدني إِلى صدره ويبكي هو الآخر، وأيقظتني أمي وهددتني بإرسالي إِلى أعمامي إن لم أكف عن سخافاتي، وأخفيت رأسي تحت الوسادة وتركتها تذهب إِلى الفرح..

. . . ومضت أيام كئيبة أعيشها وحدي في «المربوعة»، اجترّ ذكرياتي السعيدة الآفلة وأحلم بلقاء أبي والارتماء في أحضانه، وأحقد على أمّي وأرفض حديثها أو الالتقاء بها، وتكررت زيارات سيدي سليمان حتى صارت يومية لا مناص من توقعها وقبولها رغم أنني طردته أكثر من مرّة.

وجاء اليوم الذي كنت أرهب لقاءه، وأبلغني خالي أن المرأة بلا رجل موضع شبهات وأقاويل، وأنه لا يرتضي أن يداس اسمه تحت الأقدام، وأن سيدي سليمان سيرعاني وأمّي خير رعاية، وسيحل محل أبي، وأنه يجب أن أقف إِلى جانب أمّي وأبارك زواجها.

ورغم أنّه كان يتحدث إليّ، ورغم أنني أدركت كل كلمة من كلماته إلا أنني كنت أحسّ وكأنّه يتحدّث إِلى غيري، كلماته كانت تعبر وكأنها لا تهمني، محاولته الغبية كانت بعيدة عن عقلي، ووقف يستشيرني فرفعت إليه عينين دامعتين وابتسمت في ألم:

ـ إفعلوا ما تشاءون. . . إفعلوا ما تشاءون. . . أنتم أصحاب الرأي. . . والقرار.

وكنت أعرف أنني لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت، وأنّ رأيي لا قيمة له، وأنني لست سوى طفل صغير لا يعني شيئاً بالنسبة لهم، وانطويت على نفسي بكل أحزاني وأحقادي

وكرهي. . . أحترق وأحترق. . والتقي بأبي في أحلامي ويقظتي، أشكو إليه، أصرخ، ويظل على صمته لا يستجيب، لا ينطق بكلمة. فقط كان ينظر إلي بعينين دامعتين معبأتين بالشفقة علي والتجاوب مع أحزاني وكراهية أمي.

إنني أغفو الآن أيّها الكبار، وسأستغرق في نوم عميق، وستأتيني الضحكات من الغرفة المجاورة، وسأتجرع عذابات الدنيا وأحزان العالم وآلامه؛ وسأكره أمي، وأكرهكم جميعاً. . . ولكن. . . معذرة. . . إذ إنني نسيت أنني أتحدّث إِلى نفسي.

فهرس

بعضٌ من تصوّرنا 9
رحلة الأحلام 19
الغصن والشجرة 31
أحزان اليوم الواحد 43
الحاج مسعود 59
لمسات الهوى 71
اللحظات الحرجة 83
مسعود يعاكس مسعودة 97
ممنوع الخروج 107
الاختيار 119
الخفقة البكر 129
مريومة تغمز الحصان 143
اعترافات جريئة 153
شحنات الكراهية 165